صابرين الديب

لعنة ما قبل الوجود

قربان هابيل

نوفيلا

قربان هابيل

لعنة ما قبل الوجود

نوفيلا

صنين الديب

حلم-هن 2022

بقلم

صابرين الديب

غلاف وتصميم داخلي

صابرين الديب

جروب حلم-هن

"ولنا مع الحرف حلم"

للانضمام للحلم

https://www.facebook.com/groups/7elmhon

حلم -هن 2022

صابرين الديب

كلمة الكاتبة

عزيزي القارئ الباحث عن متنفس!..

لنعتبر معًا أن هذا العمل القصير مثل حبة LSD أو قرص DMT..

لا تخشَ شيئًا.. سنطوف سويًا في أرجائه، نضيع بين السطور ونبتلع وجبة الخيال مركزةً، ودسمة..

اترك عقلك خارج هذه الصفحات.. ارمِ المنطق بأقرب صندوق وأغلقه بإحكامٍ ثم تعال..

بيننا لقاء على أرض الوهم، حيث الحقيقة لا تساوي حتى الصفر!

صابرين الديب

إهداء

إلى كل شرير في رواية أحدهم!

"لعنة البداية"

أنت على حق، لم يختلط الأمر عليك أو تقع تحت تأثير خدعة بصرية ما.. ترتيب الكلمتين صحيح مثلما قرأتَ تمامًا..

ليست "بداية اللعنة" كما قد يُخيل لعقلك الذي أَلِف ذلك التوالي بل البداية هي اللعنة..

تلك اللحظة التي حدث فيها الميلاد.. حدث كل شيء آخر!

حلم - هن 2022

كلمة البطل

يُقال أن المقدمة هي عامل الجذب، يُخبركَ فيها الكاتب بما يجذبك أو.. يُنفرك، بعدها ستكمل كتابه بلهفة، أو ترميه من يدك لاعنًا من كتبه..

الكاتب في حكايتي هالَه ما فعلتْ..

خاف..

ارتعب..

هرب..

فلم يكن هناك من بُدٍ سوى أن أكتبه بنفسي..

من أنا!..

هل حقًا تتساءلون!..

أنا بطل تلك الرواية..

أنا الوغد بين سطورها..

أنا الضحية والشرير..

أنا القاتل دون قطرة دمٍ واحدة، وحكايتي لا تشوبها شائبة رومانسية وإن فاضتْ بفكرة العشق..

أنا المتمرد على حروفي، المتجبر فوق كلماتي، والطاغية في حبكتي..

وربما..

أنا المسكين، المُخان، المغدور، المطعون..

منها.. ومنه!..

أنا..

"جارِم مأمون"..

قابيل الحكاية!..

ما هي جريمة البشر الأولى على وجه الأرض؟..

إزهاق الروح..

ما السبب!..

الحسد.. حقد تمرغ في الغضب، وشهوة أغرقها الحرمان فأعمتْ البصر والبصيرة..

هاكَ سؤالك والجواب..

<1>

الراعي

كانت الحياة تنساب كقطرات هادئة؛ حتى ارتطمتْ بالصخر..

فشتتها!..

كيف نبدأ!..

بم تُستهل الحكايات العقيمة التي لا يحملُ رحمها ثمار الحروف ولا يلدُ الكلمات!..

الفِعل ليس يسيرًا البتة كما قد يُهيأ لك، حيث أنك تستعد لنقل ذاتك، أفكارك، خيالاتك ومخاوفك للورق. فليكن.. كتوطئة دعوني أخبركم أمرًا؛ البدايات ما هي إلا خدعة.. وهمٌ نصدق فيه لنقنع عقولنا أننا نمتلك نواصي الحياة، ونتحكم بعجلة الاستمرار..

أنا على سبيل المثال، شرعتُ في بدايتي قبل أن أحيا حقيقةً، وليس الأمر بغريب، كلنا أطراف خيوطنا تقع عند ذات النقطة..

نقطة ما قبل الوجود..

أُفتشُ في ذاكرتي النحيلة عن حدث يجبركم على إكمال هذه الصفحات، لكنني كلما فكرتُ في واحد أيقنتُ أني لو سطرتُه سأفقدكم، تهربون.. تهلعون ربما.. تتقززون، كل المشاعر مباحة في سراديب التمني والخسارة..

الأمل، الخوف، الغضب، الحزن، والحب!..

أعيش معها كلها في خليط غير متجانس كلاجئ هارب من الوطن، ساقط في غربة السرد لأنه عاجز عن تلاوة ماضيه الآسن مثل قصيدة رثاء، وحاضره المبهم أقرب لبيت شعر مبتور..

يُقال أنه على أعتاب البدايات نولد، ثم بعدها نمضي وصولا للنهاية..

لا يهم الدرب الذي نختاره للمسير، ما يهم أننا مرغمون على الركض مهما أنهكنا التعب، مهما طال الوقت أو كلَّت الخطوات..

وجدتُها!..

اللحظة التي تستحق الذكر والخلود في مدينة النسيان، لحظة لا يجوز البوح بها كما لا يمكن تخطيها أو تجاهلها..

لحظة رأيتُ فيها زوجتي كأنما هي المرة الأولى..

كان اسمها "مَرسَى"..

تقع في حيز المقبول من كل وجهة، الجسد، الملامح والعقل..

زواجنا بدأ كتقليد معتاد، عملية حيوية مجبرون عليها لاستكمال الدائرة وتواتر النسل، تقابلنا مرتين، وافقت على الخطبة مع الثانية وتزوجنا في عام..

سارت بنا مركب الحياة بشراعها المتهدل في بحر موجه خامد، لا تقلبات، لا عواصف، لا خطر.. سوى اشتياقها للأمومة وعجزي عن الغرس، كان الزبد الذي يذهب جُفاءً على شاطئ رباطنا

الصخري، أخبرنا الطب في حياد ألا موانع هنالك، نرابض فقط عند محطات الانتظار، والأمل حبل لا ينقطع..

حبل تمزق مرات خلال عامين تاليين، امتلأ بالعُقد وتكتل، التوى وتشابك وبات تحرير تضافره مستحيلًا.. حتى رحلتْ أمي!..

أتذكر..

لم أكترث يوم صعقتْ الكهرباء زوج والدتي ولم تفلته حتى الموت.. لم أبكِ عندما مات أخي الصغير غرقًا في مغطس الحمام..

انهرتُ فقط حينما فارقتني هي وللأبد.

نقطة فاصلة ونهاية سطر، كنتُ رجلًا ناضجًا عبرتُ حدود الثلاثين، لكني تقوضتُ جاثيًا على ركبتيّ، باكيًا كطفل شريد، تائه وحده بسوق مزدحم..

أضعتُها في طريق اللاعودة، اللالقاء..

حدث ذلك قبل عامٍ ونيف..

يومها أدركتُ الوجه الآخر لامرأتي، تلك القريبة مني جسدًا، البعيدة عني روحًا.. التي بلا عوائق أو مسوغات ضمت رأسي الفارغ وبدني المرتجف لأحضانها فعاد لروحي فوق صدرها شيء من الدفء المفقود..

وقتها أيضًا.. قابلته!

**

الذكريات حجر ثقيل، تجره بمشقة نحو الغد، تُدحرجه بسذاجةِ سيزيف المؤمن أنه يستطيع الوصول إلى القمة، فيسقط مرة بعد مرة ويثبتك قسرًا بقيود الزمان إلى ما فاتك وظننتَ بحماقة أنك عبرته آمنًا مطمئنًا..

حجر اعتقدتُ أنني قد تمكنتُ منه، شددتُه حول خاصرتي بحبل محكم، لم أتخلَ عنه فالمرء بلا ماضٍ كيان هش، آيل للسقوط كبنيان بلا عمدان، سِرتُ في دربي متشبثًا بثقتي وقدرتي على الاستمرار، أقنعتُ نفسي أنني سأحيا، أنني لستُ ذلك الواهن الضعيف الباكي، أنني لن أكون محض رجل مهزوم!..

طوال عمر كنتُ قويًا بها، سموني "مدلل أمي" كما تشاءون لكنه نوع حميد من الدلال، ربتني رجلًا، ربتني مستقلًا، إلا من حبلي السري المتعلق برحم أحضانها وحنانها، بوجودها، ذاك كان خرسانة ثباتي التي تقوضتْ وتهدمتْ ما إن رحلت عني..

لم أُشبه من ملامحها الكثير، لون عين واحدة هو ما جمع بيني وبينها، زرقاء صافية كسماء أغسطس، أما الثانية فأخذتْ من أبي بنية وجه القهوة الفاتح في وهج الشمس، كانتا لافتتين للنظر، للافتتان..

لمحاولات التقارب من بعض النساء، لكنني أنا كنتُ الجدار الحائل دون حدوث القرب، شابًا جافًا، منطويًا، وحيدًا.. يتيمًا، مات أبوه وهو بعمر العام، ومن وقتها لم يعرف من الحياة سوى تقاسيم أمه، سوى ابتسامتها ودفء ضمتها، سوى قربها وحنوها الذي امتلكه وحده..

وحدي إلى أن باغتتني وأنا في الثامنة.. برجل!..

قالت أنها تشعر بالوحدة واستنكرتُ حديثها، أنا معها طوال الوقت، أعود من مدرستي فأستلقي بين يديها، نذاكر ونلعب وأنام قربها..

قالت أنها تريد ونسًا تستند عليه حين ضعفها واحتياجها، وتألمتُ؛ ألستُ أنا سندًا كافيًا!.. ألم أكن نعم الابن طوال عمري القصير!.. المطيع، اللطيف، الطيب..

قالت أنها ترغب لي في أخ!..

لكنني لم أخبرها أنني أحتاج واحدًا رُغم محدودية عدد أصدقائي، لم أُرِد إلاها، وطمعتْ هي في غيري..

لم أتذمر، رغبتها واحتياجها كانا الأهم، لذا وافقتُها، لم أتعنت في الرفض أو أبكِ بعناد، أنصتُ لتبريراتها، مضغتُ دوافعها على مهل وازدردتُها كالعلقم ثم هززتُ رأسي في طاعة، ببسمة وعناق..

كان رجلًا حانيًا يشبهها، لم تربطني به علاقة من أي نوع، تباعدتُ عنه واقتربتُ ملتصقًا بها أكثر حد إثارة غيرته، سمعته يعارض، يحتج، يشتهي الدلال، يطمع في نصيبي من قلبها..

لم أستطع الاحتجاج بالمثل، ترعرعتُ فتى طيبًا حد الصمت والانزواء والمراقبة في سكون، مراقبتها تهبه ما هو لي منها، تزيد

صابرين الديب
حلم-هن 2022

من نصيبه وتقتص من نصيبي، بكيتُ ذات ليلة وحيدًا بفراشي، بغرفتي المنفصلة بعدما فطمتني من أحضانها جبرًا وقهرًا، ليلة واحدة من بكاء على أثرها اكتفيتُ بالتباعد والركون لوحدتي..

ربما منذ ذلك الحين نشأتْ ونمتْ انطوائيتي، قنعتُ بعزلتي واستمرأتُ الخلوة بعيدًا عنهما حتى باغتتني بالخبر السعيد..

ستأتيني بأخ كما تمنتْ!..

قبَّلتُها باسمًا وعدتُ لنفسي التي لا أملك سواها خليلًا، عندما أتممتُ عامي التاسع حلَّ على منزلنا الضيف المُنتَظر، كلا.. لم يكُن ضيفًا، كان صاحب مكان..

طفل جميل لا أنكر أن بصري تعلق به لوهلة غير مفهومة وابتسامة تعلو شفتيَّ، منمنمًا، ضعيفًا، ناعمًا وردي البشرة بعينين متشابهتين على عكسي..

لم يكن منفر المظهر مثلي، فهكذا كنت أرى نفسي حينها، كان محبوبًا استطاع الاستحواذ على ما تبقى لي من حبها، وكما انزويتُ في غرفتي قبلًا انزويتُ في بقعة ضئيلةٍ، قصيةٍ من اهتمامها..

عام آخر مر، يكبر الصغير وتبدأ أولى خطواته المتعسرة، أتعلق به رُغمًا عني، أُدلـله، أُلاعبه، والرجل الغريب يتقرب مني.. يخبرني أنني الأكبر وأن ابنه هو أخي الذي يجب عليَّ الاعتناء به وحمايته، يملأني بفخر كهواء بالون حد الانفجار، يبتسم لي كثيرًا وأعلم أن الفتى قد أحبني كما أحببتُه..

كان هو شاغلي، تباعدتُ عن أمي أكثر، لم تثُر غيرتها وإن تمنيتُ ذلك، لطالما أسعدها قربي من ابنها واهتمامي به..

عام ثانٍ مر في نهايته مات أخي!..

لم أعلم كيف مات وقتها، اكتفيتُ بقولها أنني عدتُ وحيدًا كما كنت، لم أحب وحدتي المُستحدثة، كانت فارغة، خاوية، مثيرة للرعب وهمسات أخي الراحل وضحكاته تشاغل مسامعي فأفتقده..

لكن مر الزمان وسحبنا معه عنوة، الزوج بات مكتئبًا، بائسًا، حزينًا، والدتي نال جسدها بعض وهن، ودموعها لا تنضب أو تتوقف.. لم أجد ما يمكنني فعله سوى احتواء آلامها بين ذراعي الداعمتين..

هذا كل ما أملك، ضمة الابن الباقي..

سرعان ما تصاعدتْ الأمور بينها وبين زوجها، زادتْ الفرقة وتضاعفتْ المشاحنات، كان يُبكيها وكأن خسارتها لطفلها لا تكفي، يلومها، يتهمها بالتقصير ولا أدري لِمَ!..

ألم نعلم أن الموت كما الحياة.. قدر!..

ركلتُ قصبة ساقه في مرة غاضبًا مهتاجًا حينما صرخ في وجهها، حملني الرجل الضخم من قبة منامتي وحبسني في غرفتي، ليلتها بكائها وصلني عابرًا الأبواب والجدران، احتضنتُ جسدي فوق فراشي بخجل من نفسي، من ضعفي وعجزي عن حمايتها، من فشلي في تعويضها عن الفقد ومداواة الألم..

لكن القدر كان أرحم بها مني، مات الزوج دون مقدمات، دون تمهيد.. تيار كهربي قوي سرى في جسده بينما يصلح مقبسًا ما، فلم يتركه إلا جثة هامدة..

حزن أمي كان أكبر من تحملها، وأنا مكثتُ هناك، إلى جوارها، أحميها من أوجاعها، من أشباح الخسارة وظلال ما سلف..

كبرتُ، تخرجتُ من كلية التجارة بتقدير جيد يليق بتوسطي في كل شيء، عملتُ بشركة مقاولات ناشئة ومغمورة، تزوجتُ ولم أستقل بحياتي كما يشيعون عن حياة الرجال..

اصطحبتُ أمي معي لمنزل الزوجية، أعلمتُ زوجتي منذ الليلة الأولى أن لها مني النصف متى ما احتاجته والكل مني لوالدتي، لم تعترض.. حنون رؤوم هي امرأتي، حنان لم أره أو أهتم له إلا عندما فقدتُ مصدر الحنان الأوحد بحياتي..

تلك التي منحتني ما تبقى من عمرها حتى انتهى بين يدي وأنا أنعيها، يُتمِي يتجدد وألم جوانحي يتوحش ناهشًا في طريقه سكينة روحي واطمئنان قلبي..

ليلةَ ماتتْ لم أُحررها من ضمتي إلا بحلول الصباح، حتى جرتني "مَرسَى" جرًا إلى غرفتنا وأبقتني فوق صدرها تهدهد مخاوفي

وأنين الفقد الذي ينخر عظامي كزمهرير شتاء قارِس. انتهى العزاء، دُفنت الغالية العزيزة، وارى جسدَها الترابُ كما لم أتخيل في يوم، الآن حياتي تفتح فاها فتبرز أنياب الهلع لتفترسني..

حياتي ستلتهمني قبل أن أُدرك، قبل أن أستوعب أنني قد صرتُ وحيدًا.. ثانيةً!..

وهذه المرة وحدتي لا مفر منها، ولا عودة..

هذه المرة هي من ماتت..

بعد غياب أكثر من أسبوع لم يكُن هناك من بد إلا عودتي للعمل، لمكتبي الضيق، والمروحة العاجزة التي تئز كلما دارت تجاهي كأنما تعترض على محاولة منحي بعض النسيم الحار بفشل ذريع منها، أوراقي المكدسة، أقلامي الرصاص المُرتبة حسب الحجم واللون وهوسي بالنظام، دفاتري وحاسوبي العتيق.. وزميل جديد!..

**

ذلك الصباح بدا في أوله عاديًا، مملًا، حارًا، صيفيًا بدرجة خانق حيث "يوليو" يصر على إثبات حضوره بعنف وقسوة، استيقظتُ دون رغبة، غادرتُ فراش أمي كأنما أُنتزَع من أحضانها عنوة، كأنما أنسلخ عنها مرة أخرى..

نعم.. هجرتُ زوجتي وفراشي، وبتُ لياليَّ الماضية بمكانها، رأسي فوق وسادتها التي تحمل عبقها، أتلحفُ بشرشفها الخفيف وأُطفئ مكيف الهواء كما اعتادتْ أن تفعل هي..

أُحادثها هامسًا حتى أغرق في نوم بائس كطفل منبوذ، وأستيقظ بلا إرادة لأن مخي قد اكتفى من وهم النوم، من الهروب والراحة في عالم اللاوعي..

لم أحلم ولا أدري لذلك سببًا. لم أفكر فربما كانت الأحلام تنبع من الحقائق وحقيقتي الحالية رجل بدرجة يتيم، أو تنبع من الأماني وأمنيتي تستحيل المثول بين يدي الواقع..

خرجتُ لأجد وجه زوجتي الهادئ وعينيها العاتبتين، ابتسامتها الموتورة قبل الاكتمال ورنين صوتها الخافت كعادتها يصلني متباعدًا لائمًا:

- هل أُحضر لك طعام الإفطار!..

واجهتُها بجسد مرتجف، بلحية نامية وشفاه جافة، بزفرة فاترة ونبرة باهتة:

- لا يهم..

اقتربتْ مني بدافع من حنان أراه مختبئًا بين أهدابها الطويلة:

- لم تأكل جيدًا منذ...

صابرين الديب

حلم - هن 2022

توقفتْ ولم تكمل، لن تُذكرني بها كما تظن.. وهل نسيتُها!..

اكتفتْ بلمسة لموطن قلبي رتيبَ النبضِ، فاقدَ رغبةِ استئناف المسير:

- سأُعد إفطارك وأُحضر ثيابك، إجازتك انتهت بالأمس واليوم عمل جارِم..

ازدردتُ ريقًا لكن حلقي الجاف بَخِل به، خطوتُ نائيًا عنها تجاه الحمام بلا كلمة فسمعتُها تهتف بي مترفقة:

- هذِّب لحيتك تلك..

أشرتُ لها بإيماءة من رأسي أشك أنها لمحتها، أغرقتُ نفسي بماءٍ باردٍ يعوض تلك الحرارة الحارقة، رائحة العرق المثيرة للغثيان والشعر غير المهندم، انتهيت فجففتُ جسدي أتطلع للمرآة أعلى المغسلة، كان مشهدي يخبرني أنني أبدو كوحش مُشعر بلحية كثة

تشبه لُبة أسد غاضب، أمسكتُ بماكينة الحلاقة الكهربية، زججتُ بها في مقبس قريب وسمعتُ أزيزها المعتاد..

ما إن قربتها من وجهي حتى تذكرتُ أنها كانت هدية من الراحلة.. منحتني إياها بقبلة على جبيني قبل عامٍ من زواجي وبسمتها تحاوطني قبل حروفها المداعبة:

- مظهر القرد لا يلائمك بني، اعتنِ بنفسك..

ضحكتُ من كلامها وشاغبتُها معاندًا:

- وإن كنتُ قردًا؛ فالقرد بعينِ أمه كما تعرفين.. أماه..

بادلتني الضحكة، قرصتْ أذني ولثمتْ وجنتي ثم دعتْ الله لي أن يحفظني.. ارتعشتْ شفتايّ وصدى ضحكتها الخاطفة يتردد بين جنبي، يقتحم جدران روحي فيرُجها رجًا كأنما هي قربي. أتلفتُ حولي بتعب.. بضلال، بتيه وخوف..

أُكمل مهمتي بيد مرتعدة، أكاد أجرح نفسي وهي آلة ليس من المفترض أن تسبب الجروح، أمتعض من هيئتي، من عينيَّ المتناقضَتَين، من ابتسامتي الزائلة ومن كل شيء..

أرميها بطول ذراعي وأغادر كالقرد، فالأم التي تراه ظبيًا رائعًا قد رحلتْ.. من يهتم!..

لاقتني "مَرسَى" في الممر الضيق خارج دورة المياه، ابتسمتْ بيأس وأعادتني، أجلستني على طرف حوض الاستحمام وهذبتْ لي لحيتني بيد رقيقة، حانية، أخضعتُها لناظري في محاولة استكشاف متأخرة.. كأنني لا أعرفها..

كأنني أقابلها لأول مرة وأسألها من أنتِ!..

تساوي لي خصلاتي، تُربت على رأسي، وجنتي وقلبي وتعانقني، تُقبل جبيني وتهديني من أنفاسها تنهيدة دافئة:

- الآن أفضل..

تعاملني كصغيرها..

صغير نما وتضخم على حين غرة قبل أيام معدودة ودون أن ينبهه أحد..

تُلبسني، تُساعدني في ترتيب ثيابي، حقيبة أوراقي وحاسوبي الشخصي، تدفعني على مقعدي عند رأس طاولة الطعام، وتحشر لقيمات البيض والجبن في فمي..

أمضغها بلا وعي.. كروتين لا إرادي اعتاده فَكايّ، أرمقها بحيرة وشتات، أسبر أغوارها السحيقة مُجاهدًا للفهم، أفتشُ عن امرأة تمزقتْ بيننا الخيوط مرات عديدة وتعقدتْ حتى بات التعثر هو حقيقة الدرب، أسألها ولا تجيب لأجد أنني بعد وهلة.. لم أنطق بحرف!..

تودعني عند الباب بسؤال مهتم:

- هل تستطيع قيادة السيارة!..

أُطالعها في دهشة، أتردد.. تصر على جواب فأهز كتفيّ بلا معنى وأذهب في طريقي..

طريق ليس بطويل يفصل بين مقر الشركة والبيت، أقطعه في عشر دقائق بنهايتها أدلف للمكان، تتلقفني التعازي ونظرات الشفقة والتعاطف، أتهرب منها جميعها، أهرول.. أركض، آكُلُ الدرج صعودًا للطابق الثاني حيث مكتبي فأجد أنه قد أتاني شريك..

تأملته للحظة متسائلًا كيف لذلك الوسيم الأنيق أن يعمل في مكان معدوم السمعة محدود النجاح والإنجاز كشركتنا!.. نهض من خلف مكتب مقابل يرحب بي مصافحًا، باسمًا:

- لابد وأنك جارِم مأمون، زميلي هنا..

صافحته بوجوم، لم تبهتْ ابتسامته أو تقل مثقال ذرة، شدني للداخل، سار معي نحو مكتبي المرتب، جلستُ على مقعدي بآلية وواجهني هو بنصف ميل:

- اسمي عارِم، سُررت بلقائك يا زميلي العزيز..

استغربتُ وقع اسمه المشابه لاسمي، لم أسأل ولم أكترث، لكنه باغتني بغمزة عابثة رفعتْ بمعدل استنكاري للذروة خاصةً مع ما قال:

- أرى أننا سنصبح أفضل الأصدقاء..

قطبتُ متضايقًا من اقتحامه لمساحتي الشخصية، من استناده لسطح مكتبي وحضوره بالكلية، وقبل رد أُنفره به من صداقة يتوهمها أردف ببسمته العجيبة مشيرًا إليَّ بسبابته، بنبرةِ العالم ببواطن الأمور، الخبير في أحوال الدنيا:

- أنت تحتاج لصديق يهشم تلك القوقعة التي ألاحظها من حولك، وأنا عزيزي جارِم..

تنحى واعتدل عائدًا لمكتبه، مُتراخيًا في استكمال حديثه، مُشعلًا كل فضول ممكن بداخلي، استراح في مقعده ومدَّد ساقيه أمامه بلامبالاة:

- أنا سأفعلها..

ولم أُدرك وقتها كم كان على حق!..

<2>

الغواية

كل اختلال مباح في أرض الشهوة!..

حلم-هن 2022

لم أؤمن يومًا بالمصادفات، ربما لأنني رجلٌ منظمٌ بطبيعتي حد الهوس، والصدفة أمرٌ عشوائي بحت، مبعوثٌ من رحم الفوضى..

كلُّ شيء بحساب، جُلُّ أمر بقدر..

لذا وبعد مرور شهرٍ تالٍ من وجود الشريك أدركتُ أنه أتاني في ذلك التوقيت بتخطيط من قدري، من احتياجي للصحبة، لملء فراغ الجُب الذي سقطتُ في قعره مهشم العظام، ممزق الأوصال، مطعون الروح..

كان غريبًا، يُناقضني في كل خصلة وصفة، لا تجمع بيننا واحدة. أنا الصامت الهادئ وهو الصاخب، مصدر الضجيج في الطابق بأكمله. أنا الكتوم المنطوي، وهو الذي اندمج مع الزملاء في أيامٍ معدوداتٍ حتى تعلق به الجميع دون استثناء..

أنا الجاد، الحازم، المستقيم في عملي، كقطار لا يحيد عن قضبانه، وهو متسابق سريع، يفتش عن الثغرات ويمرُق منها بجنون ودهاء.. أنا المتوحد، المتباعد عن النساء وهو!..

هو مصدر افتتان الزميلات، اللهب الحارق، الجاذب لكل فراشة، المغامر في متاهاتهن، صانعًا لمجده بعالمهن، متنقلًا بينهن مثل نحلة رشيقة، تفيض بالحياة، تمتص الرحيق من زهرة إثْر أخرى فلا تُحزن واحدة منهن، حيث كان لديه مخزونًا من الدلال لا ينفذ..

أنا الصادق غير المتهاون في التقصير، وهو المتلاعب.. الأفعى، قناص الفرص وإن كان الطريق إليها مدنسًا بالخطيئة..

أنا الذي لم يترقَ بعمله منذ بدأه، وهو قفز صاعدًا على أكتاف معسول الحديث وخدمات ما تحت طاولة المفاوضات حتى تقرب من الرؤساء وبات صديقًا لهم..

وبالتحديد.. لها!..

"فكرة السعدني"..

لم أرها من قبل إلا مرتين، في اجتماع عمل طرحتُ خلاله حسابًا سنويًا خاليًا من الأخطاء كعادتي، لم ترفع عينيها نحوي، لم ترني.. وفي الاجتماع الثالث كان هو حاضرًا على المائدة العريضة، يتأملها بذكورية فجة، يهديها بسمات جذابة تجاهلتْها كما تمنيتُ، يرمي بالكلمات قاصدًا عمق الهدف فلا يحيد ولا يخيب..

لفتَ نظرها، بذكاء.. بفطنة وخبث، بمكر وعبث رجولي لم يفشل في التأثير به على إحداهن من قبل..

أخذنا استراحة قصيرة، جاورني بلفافة تبغ مشيرًا لي بواحدة رفضتُها بأدب. ابتسم وطرف عينه يحاصرها بين أجفانه بلا مفر، كعصفور حبيس قفص ضَيِّق:

- أراهنُك أن هذه المرأة قد حصلت على الطلاق أو مات زوجُها منذ وقت قريب..

قطبتُ بانزعاجي الذي أصبح عادة في أحاديثنا، مباحٌ لكم أن تتخيلوا كيف هي تلك الصداقة الوليدة بيننا!..

بين صياد ماهر، ومُستهلِك لا يجيد الصيد، بين السماء في ظلمة الليل والأرض في وضح النهار:

- ليس ذلك بخفيّ، الكل في الشركة يعلم بوفاته قبل خمسة أشهر..

نفثَ سحابة خانقة بينما أملأُ كوبًا بلاستيكيًا ببعض الماء البارد، استند للجدار عن يساري يرميها بنظرة مباشرة تشوبها وقاحة هيَّجتْ سخطي:

– أنا هنا منذ مدة قصيرة إن كنتَ قد نسيت، لغة جسدها هي ما أخبرتني..

سخرتُ منه وأنا أعود لجلستي، أبدأُ في مراجعة حساباتي لمرة ختامية:

– هنيئًا لك أيها الخبير..

تبعني، تجاهل سخريتي وهمس يجبرني على اختطاف نظرة:

– تهرب من عينيّ، من ابتسامتي، تتشاغل بالعمل وتتزمت متمسكة به؛ لتُظهر أنها سيدة صارمة لا تخشى شيئًا وأن فقدانها لزوجها لم يؤثر بها..

كانت تفعل ما يقوله بالترتيب كأنه يمليه عليها، هذه طبيعتها التي أعرفها وقابلتُها مسبقًا.. أدهشني وأحنقني ذكاؤه، ابتلعتُ ريقي واكتفيتُ بالصمت لكنه تخطى كل الحدود بصفاقة:

- انظر لجلستها.. قلقها في مقعدها بهاته اللحظة عندما أهديتُها بسمة مباشرة، لقد رفعتْ ساقًا فوق أخرى وبنت حاجزًا ورقيًا بالملف الأحمق ليقطع تواصل بصرينا..

لم أفهم مقصده لكنها بالفعل كانت مختبئة بنظرها داخل الأوراق، تُدقق فيها بجدية، ما المانع في ذلك!..

هو يُحور كل الأمور، يفترض ما يزيد على المشهد ويبني صورًا بخياله وإن لم تنتمِ إليه، يختلق الحكاية ويصدقها ككافة كذباته.. امرأة مثلها ليستْ هشة أو ضعيفة، ليستْ قابعة بيأس في انتظار اقتحام رجل.. أنا أعرفها جيدًا حتى لو لم نتقابل وجهًا لوجه كثيرًا، سُمعتها تسبقها على أية حال، سألتُه بفضول وليد، لقد توقفت أفكاري عند حافة استيعاب جنوح أفكاره:

- وما المشكلة في ذلك؟..

أدار وجهه نحوي، يحررها من تسلط عينيه، مستهينًا بي ومهينًا لرجولتي:

- أي رجلٍ أنت جارِم!.. ألا تقرأ إيحاءات جسد زوجتك عندما ترغبك!..

توسعتْ عيناي بصدمة غاضبة، كدتُ أصيح فيه لولا المكان:

- التزم بحدودك يا هذا..

تراجع يعلن هدنته بعدما هزمني في حرب غير معلنة، أطفأ تبغه، يهرس اللفافة في المرمدة بحركة قوية لا داعي لها:

- لا تغضب يا صديقي، أردتُ فقط إخبارك أن جسدها يتوق إليَّ في هذه اللحظة بالتحديد..

أما أنا فأردتُ أن أصفع وجهه الوسيم، ألكمه، أهديه بعض تشوه.. يؤمن أنه نعمة لكل أنثى تعثرت في طريقه حتى مديرته

التي أغلق عليها مداره، يظنها عاهرة لا تخفي اشتهائها له بل تكبته وهو يراه ويدركه.. فجأة تركني وذهب إليها، راقبتُه بحذر، أملتُ أن تأتي الصفعة منها.. أو حتى الطرد من العمل..

استقبَلَتْه بوجه جامد خالٍ من أي تعبير، أنصتتْ له وهو تَلبَّس قناعًا يبدو أنه يناسبها، يبحث عن مدخلها المُشرع بمواجهة اقتحامه ربما، انحنى مقتربًا، اشتعل فتيل حماسي وأنا أوقن من غضبتِها، ابتسامته.. تلك البسمة التي أكرهها، تكرم عليها بواحدة أشاحتْ عنها بخاصتها، ناعمة، طفيفة لم تستطع كبحها فوق شفتيها بالكلية، أصابني ذهول.. رأيتُها تتراجع في مقعدها كأنما أنفاسه المعبقة بالتبغ تحرق بشرتها، يهز كتفيه بتلقائية فترفع حاجبيها برفض، يصر وتعاند، يمسك بقلمها ويخط به شيئًا بين

أوراقها وهي تتأمله بصدمة لم يمنحها الوقت لهضمها أو حتى ابتلاعها..

مرر سبابته خُفية على ظاهر كفها المتشبثة بالطاولة، شعرتُ أنها على وشك السقوط، سجنها بنظرة أخيرة تممتْ عملية الأسر وعاد..

جاورني في استعداد لبدء العمل، وصوته يصلني مشاغبًا:

- سأقابلها بعد العمل، ما رأيك لو أتيتَ معنا!..

تغضن جبيني، أوضح بمزيد لم يزدني إلا غموضًا:

- هناك حفل عشاء عقب توقيع العقود، أنت لا تذهب لتلك الدعوات؛ تحتاج لبعض التغيير في خططك الجافة وحياتك الباهتة يا صديقي..

تهكمتُ عامدًا الاستهانة:

- تلك ليست مقابلة كما تحاول أن توهمني..

هز كتفيه وعينيه تحطان عليها فتجيبه بنظرة متحدية مماثلة أعجبتني:

- قلتُ: بعد العمل، لم أقل أثناءه والعشاء تابع له..

لم أصدقه.. هي لن تسقط لحضيض ذكر يتلاعب بأوتار أنوثتها واحتياجها كما يشتهي، يعلو بإيقاع النغم فيُخلخل سكونها ويهدم أمان عالمها.. وافقتُ بفظاظة راغبًا في فضح افترائاته:

- حسنًا.. سآتي..

وكزني بمجون مغيظ:

- للعشاء وحسب، لا تطمع فيما هو أكثر، هي لي وحدي..

ذكَّرُته بامتعاض:

- أنا رجلٌ متزوج..

ضحك مداعبًا أو هازئًا، لا أستطيع التمييز معه:

- نعم أعلم..

وقبل أن يُظهر واجهته الجدية تمتم بفُحش حروفه:

- فكرة.. تثير بعقلي الكثير من الأفكار السيئة..

قالها وضحك بخفوت على مزحته السمجة، انتهينا، هاتفتُ "مَرسَى" أُعلمها بتأخري، تتبعته كظله في المطعم الأنيق الذي دُعينا إليه، رأيته يكسب الحضور في صفه بمرحه ودعاباته، يسيطر على مجريات المشهد كأنما ليس بحديث عهد بيننا، يدعوها لرقصة فتتمنع.. يكرر الطلب بمشاكسة وحينها تهز رأسها بيأس وتستجيب!..

الوغد يجيد الرقص كما يجيد كل شيء آخر على عكسي..

حلم - فن 2022

يغمزني من وراء ظهرها ثم يحنى عنقه هامسًا في أذنها بكلمات معدودة توقفت خطواتها على أثرها، أجبرها على العودة للرقص مكملًا عزفه الشيطاني كما أخمن فوق مكامن ضعفها، يده تتسلل في خبث لا يلحظه سواي لتداعب خصرها، يقربها منه، يكاد يلتصق بها ولا تعارض!..

تنتهي الليلة ويرحل الضيوف، سواهما، سوى خطواتي المتباطئة علَّني ألتقط بقايا الصورة قبل مغادرتي، أراه يفتح لها باب سيارته، يدور حولها وقبل استقراره بمقعده يرميني بنظرة المُدرِك لوجودي المراقِب، يرفع حاجبه ويقول لي شيئًا دون صوت.. لم يمكنني قراءة حركة شفاهه لكنني كنتُ على يقين من أنه تعليق بذئ يتلاءم مع أحداث الليلة..

ملأني غضب غير مفهوم، كيف خضعتْ له!..

هو لا شيء.. نكرة، فكيف أوقعها في حبائله دون مشقة!..

أردتُ الذهاب خلفهما، أردتُ أن ألكمه وأصفعها، أن أعيدها لصوابها لكن السيارة طارتْ تسابق رياح أوهامي العاصفة ونواياي الثائرة، اختفيا وعدتُ لمنزلي محبطًا، حزينًا وقانطًا من فوز الشياطين في معارك الحياة دومًا..

كان مجردَ شيطانٍ، فاسدٍ أجاد اللعبة..

استقبلتني زوجتي التي لم أقربُها منذ رحلت الغالية، لم تكل أو تمل من تباعدي وانطوائي على كينونتي الهزيلة، تتفهم ما أمُرُّ به ولا أفهم تفهمها وإن أراحني..

سألتني باهتمام:

- هل كانت ليلتك طيبة!.. تأخرتَ وأصابني القلق!..

ليلتي كانت باهتة عزيزتي، ضاعفتْ من رغبتي في الانزواء؛ كوني عاجزًا حتى عن مجاراة صديق في الإحاطة بجوامع أنثى..

وجدتُها تقتفي أثر خطواتي لغرفتي، تجلس على طرف فراش أمي، تبتسم بخجل وتلوي أصابعها متحاشية لقائي بعينيها:

- ألن تعود لغرفتنا!..

تأملتُ لغة جسدها، أهذا ما قصده ذلك الفاسق!..

تُربتْ على نفسها برجفة، تعانق ذراعيها، تِلوها تمرر قبضتها المضمومة فوق ركبتها الملاصقة لرفيقتها بشدة، ترنو إليَّ كأنها تناديني، بل تناشد بوضوح عودتي لقربها..

كم أنني أحمق بالفعل وأستحق، هي تريدني.. كنتُ أخلع قميصي حينها، تخلصتُ منه بعجالة وخطوتُ نحوها، أقمتُها بين يدي، غرِقَتْ في نظرتي الجائعة إليها بحيرة مشتتة بترتُها في المهد..

ثم أخذتُها كإعصار!..

**

لم أكن أنا!..

لا أعرفني.. كنتُ أولد مرة ثانية، تلفظني ظلماتي الثلاث كأنما عدتُ رضيعًا يستقبل الحياة بأنفاسٍ واهنة وشهقاتٍ مبتورة، كنتُ رجلًا آخرَ انتوى التحرر من روابط ضعفه وقصوره، عزم على تمزيق شرنقة ذاته القديمة كيرقانة بائسة ليحلق عاليًا مثل صقر جارح، مهاجرًا بسماء الحرية، بلا قيود أو أوزان تثقل قلبه فتعيده إلى الأرض..

غضبتي، غيرتي، حسدي لنقيضي المتمثل في زميلي الأهوج المغامر، هي واختلافها معي عقب موت أمي، أنا..

السبب الأول والأهم هو أنا..

كنتُ إعصارًا أكلتُ في طريقي أخضرَ ويابسَ ملذاتِ أنوثتها دون رحمة أو هوادة، موجًا عارِمًا أُغرِقُها بأعماقي حد التيه، وأصعدُ بها للسطح بغتة فيصيبها دوارُ بَحْرِي..

لم أكن أنا، كنتُ ما أريد أن أكون!..

وتلك هي مرتنا الأولى معًا، كما أؤمن وكما رأيتُه منعكسًا بعينيها المتسعتين، اللتين حملقتا فيّ بخجل من اقتحامي، من جرأتي، بمقلتيها المأخوذتين بي، اللتين دارتا بضياع في عالمي.. انتهتْ ليلتُنا قرب الفجر، استلقينا بفراش الراحلة، سقطتْ هي نائمة برضا يغمر ملامحها بين ذراعي، وبقيتُ في أوجِ صحوةٍ غير منطقيةٍ أو مبررة..

عانقتْ أجفاني بعضها بعضًا، حاولتُ أن أُجبرها على الغوص في لُجة النوم وعاندتني، تأففتُ، تململتُ، سحبتُ جسدي واعتدلتُ

جالسًا أحدق في الفراغ، في الظُلمة التي شقَّها شعاع شمس الشروق بحياء من وراء الستائر الحريرية البيضاء..

أُراقبُ خيالاتي الراقصة في عتمة أفكاري، أُتابع إيقاعها الصاخب وأَتبعُها كمسحور، تغويني وأخضعُ لها، أرغبُها، أطمحُ للَّهْو والمجون، وما أسوأ من سراب الأمنيات وعجز الوصول!..

أزحتُ الغطاء ودثرتُها به، وقفتُ إلى جانبها أتمعن فيها وحدقتاي تتكيفان مع الضوء الشحيح بالغرفة، أميلُ ببصري إلى الفراش الذي دنستُه -عامدًا- بثورة شهواتي وغواية إبليس..

أبتسمُ بسخرية.. وأبتعد..

أغتسلُ منتعشًا ببرودة الماء، وعبق امرأتي يتسلل من جلدي إلى أنفي فأستنشقُه بتأنٍ، أتشبعُ به..

أبتسمُ مجددًا لكن.. بعبث.

أضعُ نقطتي الفاصلة وأُنهي سطرًا جديدًا، وددتُ لو أمكنني أن أُنهي كل شيء، أبترُ كل ماضٍ، وأُخلَقُ من عدمِ الذكريات وفضاءِ النسيان الفسيح..

أذهبُ للمطبخ بانتعاشِ مَن غرِق في سُباتٍ مرتاحٍ طيلة الليل، أُناقضني من الألف إلى الياء، ألمحُ مذياع أمي العتيق..

أبتسمُ بفتور..

أُديرُ زر التردد باحثًا عن استهلال مناسب لصباح مختلف، لـ "أنا" مختلف.. أعبرُ فوق محطات عَشِقَتْها والدتي..

أبتسمُ بقسوة.. وأدهسُها..

أريد أن أنسى.. أريد ألا أكون..

أحملُ المذياع نفسه وأدفنه في غياهب جارورٍ ناءٍ لن تمتد إليه يداي بعدها أبدًا..

أتناولُ هاتفي وأختارُ ما أشاء، يتسلل لمسامعي لحن "ديون ديموتشي" وفتاته "Runaround Sue"..

أبتسمُ بشقاوة..

آخذُ الإيقاع في جولة رقص، بمرحٍ غريبٍ لا أعرفه عني.. أطوفُ حول نفسي، أفتحُ البراد، ألتقطُ الجبن والبيض.. أتأملهما بيديّ ثم أعيدهما، لن أتناول روتيني الممل على مائدة إفطار اليوم. ماذا عن أصابع البطاطس المحمرة!..

لم أكُن أجيد الطهي؛ لذا بنظري ألذ الأمور هو أبسطها..

وقفتُ عند الحاجز الرخامي، أتحركُ بعفوية مع النغم، أتمايلُ والسكين بين أصابعي تقشر وتقطع، أُغني وأَقلبُها لتتحول لميكروفون، ألتفُ على أطراف أصابعي ليفاجئني وجود زوجتي عند الباب، تستند إليه وتتابعني بدهشة هي أقرب لصدمة، صدمة

لم تمنعها من التبسم فتضيء ملامحها بالكامل، ألاحظُ فيها جمالًا لم أره إلا الآن، الوجنتين المرتفعتين بأنوثة، الأنف النحيف المستقيم، الشَفَة السفلى القابلة للالتهام والتقبيل، بادلتُها البسمة..

أبتسمُ لها بمكر.. وأتقدم..

أسحبُها نحوي بثوبها الصيفي القصير ذي الكسرات، أدورُ بها واللحن يتردد، الصوت يعلو ويُغلف ما حولنا، يغمِّي أعيننا سوى عن أحدنا الآخر، أُطوقُ خصرها بذراعي وبكفي أُجبرها على مجاراة خطواتي العشوائية وإن كانت تليق بالأغنية التي أوشكتْ على الانتهاء..

أُدندنُ بالكلمات وهي تضحك..

ضحكتها فاتنة..

أين كانت تلك الضحكة من قبل!..

صابرين الديب

حلم - هن 2022

في الختام وقفنا متقابلين نلهث، يديها فوق صدري ترمقني باستغرابٍ مُتعجِب، تحتفظ ببسمتها وتسأل بتهدج أنفاسها الحارة:

- من أنت!..

أقتربُ وأُديرها بلا صوت، أُشاكسها:

- لا تعرفينني!..

تنفي بهزة رأس يحفُها الشتات والتشوش:

- أشعر وكأنني أُقابلُكَ للمرة الأولى..

غمزتُها لأُجدد الصدمة على وجهها:

- نتعرف إذًا..

وبدأتُ تعارفي بامتلاك..

غارةٍ غزوتُ بها حواسها، وجوارحها، حربٍ أُسيطرُ فيها وأستحوذُ وأُعلنُ النصر، أرفعُ أعلامي على قلاع مدينتها المهزومة أمام جيشي..

أتيه في أفكاري التي هاجرتْ لأوطانها، خلال ما يزيد عن الشهر لم تكن هذه التي عاشرتُها لما يقرب من عامين، لم تكن تلك الجافة المتباعدة، فاترة المشاعر والنظرات.. كانت أخرى أجهلها، تعتني بي، تتقرب مني وتهتم لأمري، ترى ضعفي فتقويني، تعاملني كطفلها وأنا أنأى عنها بكل ما في..

استغربتُها.. استنكرتُها، وبعد صبرٍ منها استكنتُ لها، أردتُ أن أسكُنُها.. أردتُها أن تسكُنَني، عدتُ إليها، أردُ سؤالها وشعورها يتملك مني بالمثل:

- أنا موقنٌ من أنه لقاءنا الأول مَرسَى..

حاوطتُ وجنتَها بيدي، ناوشتُ أنفها الناعم بسبابتي وضممتُها إليّ، تعجبني نسختها هذه أكثر:

- أين كنتِ من قبل؟..

والسؤال الأهم: لماذا اختبأتُ أنا!..

ترددتْ لوهلة، أحسستُ بترددها فأبعدتُها، زويتُ ما بين حاجبي مستفسرًا لأجدها تفارق عناقي، تغادر فراشنا المأهول بذكرانا لسنوات، توليني ظهرها وترتبك بصمت، ثم تلتفت نحوي بوهن:

- لم تكُن يومًا في حاجتي، لم تُقربني منك، لكن عندما رحلتْ...

بترتْ كلماتها وأدركتُ السبب، هو نفسه ما يمنعها عن القرب والحديث في كل مرة، سببًا ما عاد حاضرًا بيننا ولن يعود.. أكملتُ حديثها بذهني، حين غابت أمي عن المشهد بزغت هي، أصابتني

نقمة مضاعفة على ما فاتني، استقمتُ لأواجهها، أحتجزُ ذقنها بين أصابعي فأُرغمها على التلاقي مع عينيّ، تبتسم..

وأبتسمُ برفق..

تكمل وكفها تلامسُ كفي:

- أظن أنني وجدتُ لي مكانًا بحياتك، بقلبك!..

احتويتُ جسدها بكليته وهمستُ لها بينما أستشعر نبضها المرتبك، الذي يحبو في دنيا الغرام بتعثُر:

- بل أظنُ أنني وجدتُ مَرسَى سفينتي التائهة في عرض المجهول..

رعشتها جعلتني أشددُ على ضمتها، رفعتْ وجهها لتقابلني، إشراق مقلتيها أضاء دُجنتي، سحبني من قوقعتي، مزَّق شرنقتي بسيف من نور، انحنيتُ متلهفًا للرسو على ميناء قلبها:

- مَرسَاي..

فربما تكون النجاة من اللعنة في حرم.. العشق!..

<3>

السقوط

كل الخطايا في البداية كانت مجرد.. فكرة!..

يمرُ الزمان ونمرُ معه قالبًا دون القلب، لا نُمرره لكننا نتعايش مع عجلة دورانه، نتكيف مع فواتِ الأمس، مع نشوبِ مخالب الحاضر في صدورنا، مع أنيابِ الغد التي نتوقع افتراسها لأرواحنا الملتاعة في فوضى الوحشة والخوف..

نكيل لأنفسِنا تُهم النسيان، نحاكمها ونجلدها، نتمنى ويصيب أمنياتنا الذنب ويحاصرها الندم.. لا ندركُ أن بعض الألم محفور في الخلايا لا ينمحي إلا بتوقيع الموت..

لا أعلم كيف تتطاير الأيام من العمر كأوراق ذابلة تكالبت عليها كهولة الخريف وشيخوخة الشتاء فلم يعُد لعودة الربيع من ترقُبٍ أو انتظار!..

أحيانًا أفيق على شرودي فيما أجهل، أُقاتل ضلالي علَّني أفوز بيانصيب التذَكُر والحظ ليس بحليف لواهمٍ مثلي. أغيب في دنيا

الخيال باحثًا عن سراب كان وسيظل في حقيقته لا شيء.. أرمقُ المحيط من حولي بحيرة، كيف ومتى أتيتُ، من أين وإلى أين!..

وأختمُ بالسؤال المعضلة، الأصعب.. لماذا!..

الحياة دائرة جوفاء مقفرة، أعيشها كشبح باهت، سجين ماضيه وخساراته ووحدته، حتى الصديق اللعوب الذي لم أعُد أخشاه كالسابق لا يملأ تلك الفجوة الشاسعة بداخلي، لا يكفي لسد ثقوب خوائي الكثيرة أو ترقيع اهتراءاتي ..

شهرٌ تلا شهرًا، عبرا حدود زماني الرتيب، بِتنا أقرب، صحبني للعشاء عدة مراتٍ، أزور معه أماكن لا أعرفها ولم أتخيلُني فيها، شاهدنا مباراة لكرة القدم رُغم أنني لا أتابعها وشاركتُه حماسه وانفعاله، تجاسرتُ برعونة وتبعته لملهى، أردتُه أن يفسدني، أردتُ

أن أتشتتَ في ضباب الحياة التي سِرتُ دهرًا بدروبها ومازلتُ أجهلها، مُحصلتي في استيعابها صفر ساذج..

ليست لي هوايات لكن لديه هو العديد منها، خاصة النساء..

أو "فكرة"!..

- ما رأيُك!..

سحبني من دوامة غفلتي لواقع وجوده، كنتُ جالسًا خلف مكتبي أتشاغلُ بعملي غير منشغل به، قطبتُ في حيرة ورفعتُ بصري إليه باستفهام أحنقه، زفر بضيق مني كما اعتدتُ أنا معه قبلًا:

- حفل الليلة، زفاف أحد المدراء.. دعوتُ "فكرة" لنذهب سويًا..

ظلتْ حيرتي في مسكنها، تُقيم بتفاصيل ملامحي:

- وما المشكلة!..

تنهد بصبر واعتدل في مقعده:

- أريدك أن تأتي معنا..

- لا..

- لِمْ؟..

سأل بحدة استغربتُها:

- لا أحب حفلات الزفاف..

استقام يقترب من مجلسي متهكمًا:

- أنتَ رجلٌ نَكِدٌ يا عزيزي جارِم..

استند للمكتب ورفع حاجبه بإغاظة:

- لها الله زوجتُك..

قلبتُ عينيّ بحركة لامبالية، أما هو فانتصب دون مقدمات، بعينين متوهجتين كمن وقع على كنزٍ:

- أَحضِرها معك..

لم أفهم مقصده، كما لم أُرد الذهاب.. إلحاحه في كل الأمور يضايقني، أتغاضى عن بعضه وأعارض البعض الآخر:

- من!..

تمتمتُ بالسؤال بلهجة باردة وأنا أدفن وجهي في أوراقي حرفيًا علَّه ييأس مني ويبتعد:

- مَرسَى..

نهشتْ نظرتي وجهه الوسيم في لقاء شرس، طاشتْ مني زعقة احترقتْ بها أحبالي الصوتية:

- كيف عرفتَ اسمها؟..

وقفتُ، انتفضتُ من مكاني أواجهه، أقابلُ بصره على هاوية حرب شعواء، أجزتُ في وغاها كل أسلحة الدمار الشامل، هزأً مني باستهتار:

- تُحادِثك جارِم، وذاك الاسم الذي تناديها به..

لم أتذكر..

لم يسعُني التذكر فظلتْ قامتي مشدودة قبالته كوتر على وشك التمزق، وهو لم يكتفِ بغضبي الجلي؛ أردف بعبثه الدائم:

- اسمها جميل بالمناسبة..

- لا تنطقه ثانيةً.. أتفهم!..

نهيتُه بصرامة وسبابتي تكاد تخرق عينه، ابتسم وربت على كتفي:

- هل تغار مني!..

لم أُجبه، غمزني يدفع بالمزيد من الحمم لشراييني حد الانفجار كبركان ثائر:

- لِم لا تعرفني عليها؟..

لا يمزح.. اللعنة عليه لم يكُن يمزح، أردتُ أن أُهشم فكه الباسم، بل هممتُ بالفعل لولا أن أمسك بقبضتي ضاحكًا بمرح أشعل النار في حفيظتي:

- هل تخشى أن أُعجبها!.. ألا تثق بها!..

- لا أثق بك أنت..

بصقتُها في وجهه بحدة وتراجعتُ إلى ما خلف مكتبي، لن أَنجرَّ للهْوِهِ وسخافاته، غير أنه هتف بنبرة درامية يفتعل الصدمة

والأسى، يضع كفه المفرودة عند قلبه، يحني كتفيه ويتشدق بالحزن:

- جرحتَ مشاعري يا رجل..

تجاهلتُه كأن الفراغ ابتلعه ولم يكُن ليأس؛ أصر عليّ في الذهاب، غرس في طريقي كل الإغراءات التي يمكن أن تجذبني لحضور حفلٍ صاخبٍ طافحٍ بالضجيج، بالتحام الأجساد في مشهد جنوني راقص كأنما هو قانون الأعراس.. بنهاية يوم العمل كنتُ بحماقتي أوافق على صُحبته..

عدتُ للمنزل، تناولتُ غذاءً بسيطًا ونظرة زوجتي تُتابعني بفضول، بترقُب، بتساؤل لا أُدرك فحواه ولن أفتش عنه، أنبأتُها عن الزفاف ورأيتُ إحباط ملامحها التي رغبتْ في دعوة مني

لتُرافقني، تغاضيتُ عنه وعنها وارتديتُ بذلة مناسبة، قدتُ سيارتي للمكان، والتقيتُ به هناك.. معها!..

كانت ساحرة، بكل ما للسحر من مغزى ومدلول، بشعوذته وإخضاعه، بلذته وجموحه، خصلاتها الطويلة حرة في تصفيفة غجرية منحتها إطلالة جريئة وبذات الوقت خلابة، آسرة.. لمحني، لوح لي فاقتربتُ بتردد، قدمني إليها، ابتسمتْ وصافحتْني بلطف حميمي، تخبره به وتخبرني معه أنها تعرفني..

غادرنا الحفل قبل نهايته بناءً على رغبتها.. ودعوتها، بنادٍ ليلي قريب اعتزما إكمال السهرة.. أصرا أن أكون الثالث في مكانٍ لا يليق بي ولا يشبهني، مكانٍ خضتُ تجربته لمرة وحيدة من قبل، دفعني دفعًا وهزتْ هي كتفيها في دلال كأنما تتحداني..

قَبلتُ التحدي..

قَبلتُه وقَبلتُ كل تنازلٍ من بعده، العشاءَ الباهظ، الخمرَ إثر ممانعة باهتة، الرقصةَ الهادئةَ وهي بأحضاني، ولمستَها الحسية لذراعي حين غاب عنا!..

شتتْني، سحبتْني لدوامة ظلتْ تدور بي حتى سقطتُ..

وغرقت!..

**

آفةُ العقل طغيان الوعي وغزارة الفكر..

أما راحتُه الزائلة ففي الوهم، في الغياب، في ضياع لا تعلم متى بدأ!.. لكنك تصحو قسرًا على تبعاته لترى نفسك وقد دُفنتَ بمستنقع خطاياك الأكبر، يُغطيك وحْل جُرمك فلا تبصر ملامحك، لا تتعرف إلى ذاتك ولا تريد أن تقابلها بعدما نال منك الدنس حتى دَرَك كيانِك الأسفل..

تلك الراحة المؤقتة، المسروقة، التي انتهتْ بي أستيقظ صباحًا بعُسر، بصداع يشجُ رأسي، ببصر زائغ، بتشوش فاقد لذاكرة الحواس وإن كان الجسد يتذكر متعته بكسل، أتمطى ظانًا بأنه كان محض حلم فيباغتني المكان!..

الضوء الهادئ، العطر الأنثوي المثير، ثيابي المبعثرة، وصوت تحركات قريبة استدرتُ لمصدرها في انتظار. هذه غرفة أجهلها..

هذا أنا أجهله..

بعدها تظهر امرأة، لا.. إنها هي.. "فكرة"..

رأيتُها تغادر بابًا جانبيًا بحُلة رسمية في أناقة مألوفة، تساوي خصلاتها وتنتبه ليقظتي، تهديني بسمة دافئة، ترمي حذائها عالي الكعب من يدها وتدنو مني، تُجاورني في الفراش، يتعرف على

جسدها كأنه ملكها، تُلثم فكي، شفتيّ، لا تفطن لجمودي، لذهولي وضلالي، تحطُ بكفها فوق صدري فيتشتت نبضي:

- صباح الخير..

همهمتُ بحروف غامضة عزتْها هي لعدم فواقي بالكامل، احتفظتْ ببسمتها الفاتنة ووكزتني بسبابتها مشاغبة:

- أحببتُ ذلك الرقيق الذي كنتَ عليه البارحة..

ثم أهدتني غمزة فجرتْ صدمتي داخليًا فأحالتْ أحشائي لشظايا:

- لا أريد أن يكون هذا لقائي الأخير به!..

نهضتْ تعتدل برشاقة، ترتدي الحذاء وتُصلح مظهرها بلمساتٍ سريعة أمام مرآة طاولة الزينة، تلتفتُ إليَّ بامتنان لم أعلم له سببًا:

- أشكرك لأنك بقيتَ معي ليلة أمس..

تحمل حقيبتها وتستعد للرحيل:

- تأخرتُ على العمل بسببك أيها الشقي.. سأذهبُ أنا، وأنت كُن على راحتك..

قبلتني ثانيةً قبل أن تبتعد خطواتها:

- تصرف وكأنه بيتك عزيزي جارِم..

اختفى طيفُها، تبدد ظلُها وتلاشى صدى صوتها والكلمات التي خصتني بها..

بل تلاشى الكون واندثرتْ الأرض بمن عليها..

أنا رجلٌ خائن!..

**

انتفضتُ بزلزال يهز عالمي، يُقوضه، يُبدله لأنقاض.. لأطلال رجل لطالما افتخرتُ به حتى صادفَ الغواية فسقط في بئر الخطيئة..

هرولتُ بتعثر أغادر فراش العهر، أرتدي ثيابي وأنكبُ على وجهي، أفقدُ اتزاني.. أفقدُ صوابي..

أفقدُ نفسي..

ترتجف يدي وأنا أتناولُ مفاتيحي الملقاة بحميمية تلاءم المشهد على مقعد قريب، أتعثرُ مجددًا لكن بهيئتي في المرآة.. بمظهري غير المهندم وحقيقة جريمتي تخطُ حضورها واضحًا، صارخًا فوق حنايا وجهي، أقفُ بوجوم..

أكرهُني وأعتصرُ أجفاني هاربًا من واقع اللحظة التي لا مفر منها..

أعودُ للنظر، للمواجهة الحاسمة مع ذاتي الموصومة بالخيانة، أرتبُ قميصي، سترتي، أتغاضى عن رابطة عنقي.. أنا أختنق، أحملُ ما يخصني دون تباطؤ وأرحل..

أقودُ لبيتي.. لها، لزوجتي التي سأقف قربها بعد دقائق وأبتسم.. كأن شيئًا لك يكنُ، ولن يكون..

أصلُ في ساعة والطريق يحتاج النصف وحسب، تستقبلني بلهفة، بخوف، بضمة استشعرتُ فيها العشق وأَبيتُه، يرتعش فمي زُورًا بشبه بسمة، بكذبة ردًا على أسئلتها القلقة، المهتمة:

- أُضطررتُ للعودة إلى العمل، كان لدينا جردًا استغرق الليل كله..

عاتبتني نبرتُها في حزن:

- لَم تهاتفتني، وهاتفتُك كثيرًا لكنه كان مغلقًا..

رفعته لناظري.. لا أذكر متى أغلقتُه!.. افتعلتُ الحجة الأشهر:

- فرغتْ بطاريته..

تخطيتُها تجاه الحمام وأنا أتخلصُ من ملابسي بقرف، تبعتْني حائرة إلى أن أغلقتُ الباب يحول بيني وبينها، يواريني عن طُهر عينيها، يخفي الوسخ الذي يجهر بخيانتي لها..

وقفتُ لزمنٍ لم أُحصِه تاركًا رذاذ الماء يتخللُ مسامي، يخترقُ روحي التي تسقط بجاذبية الغضب إلى قاع الظُلمة، أُغلقُ بصري عن كل ما حولي وعن نفسي، أستندُ بجبيني للجدار البارد وأصدمه فيه بشيء من قسوة.. أبغضُني..

أَنتهي ولا أَنتهي، أُجففُ جسدي وأخرجُ لها، لبصرها الذي ينشئ سياجًا من نار يُطوق به أفكاري، تطمئن عليَّ فأغمغم بما لا أسمع ولا تسمع، أرتدي ثيابًا نظيفة وتلاحقني هي بدهشة:

- هل ستعود للعمل!..

- نعم..

اقتضاب أردتُ به أن أُوقف الاستفسارات وأبتر الاهتمام، لكنها استمرتْ بلا رغبة مني:

- أنتَ مُتعب، تحتاج للراحة والطعام، ابقَ اليوم..

انتزعتُ ذراعي الذي تمسكه برفق منها بفظاظتي، لم أكترث بالتفاتة، بتبرير سوى الرفض والتعنت المشحونين بالغضب المكبوت:

- لا..

- لكن...

زعقتُ بها.. امتلكتُ من الصفاقة والوقاحة ما يكفي لأفعل:

- قلتُ لا مَرسَى، العمل ليس لهوًا..

وغادرت..

أشبه بعاصفة مرتْ على بيتها فقلبته رأسًا على عقب، وتركته من ورائها كقلبها خاويًا، مرتعًا للألم، هشًا في مواجهة الخوف..

بمكتبنا المشترك كان "عارِم" قابعًا بمقعده بأريحية واسترخاء أثارا جنوني، دلفتُ للداخل حائرًا، هل أقبضُ على عنقه فلا أحرره حتى الموت!.. أم أتصرف وكأن ما كان لم يكن، وهكذا أُحافظ على نقاء صورتي المكذوبة!..

ابتسم لي هو مبادرًا بخبث:

- لأول مرة تتأخر عن العمل!..

تجاهلتُ أي تلميح قد يشتبه به عقلي الفائض بالشكوك وأنا أجلس بمقعدي:

- استيقظتُ متعبًا..

لم يتحرك من مكانه، وضعني تحت مجهر نظرته الفاحصة فأربكني:

- كانت سهرة طويلة..

زممتُ فمي بصمت واجم، أَكملَ بلؤم:

- ومُرهِقة..

ارتفع وجيب قلبي، هل يعلم ما لا أعلمه!..

يعلم كيف ذهبتُ معها لمنزلها!.. كيف خُنتُ زوجتي!.. وخُنتُه هو مع امرأته!..

يعلم أكثر مني والجهل في موقفي نقمة، اقتلعني من جذور شتاتي بسؤال مبهم:

- هل أوصلتَ فكرة لمنزلها بعد اضطراري للرحيل؟..

هذه معلومة أولى، لقد غادَرَنا باكرًا، تمتمتُ له بنعم اختزلتُ فيها بقية الحديث الذي لا أبتغيه، وأصرَّ بسماجته البغيضة:

- فقط!..

هنا لابد من وقفة، لو تغابيتُ أكثر لتمادى أكثر وأنا كذباتي مفضوحة على عكسه، اعتدلتُ أرمقه بنظرة متقدة كالجحيم الذي يأكلني بلا شفقة:

- ماذا تقصد؟..

نطقتُ السؤال بصرامة مبالغٍ فيها، وكان رده بافتعال مبالغٍ فيه:

- هل دعتْكَ لقدحٍ من القهوة.. مثلا!..

أجبتُ بصراحة لا محل لها من إعراب مشهد أنا بطله الأَبله:

- أخبرتُك أنني رجل متزوج..

ابتسم بدهاء بَعَثَ برعشةٍ في أنحاء روحي:

- وأخبرتُك أنني.. أعلم..

هاجمتُه بنظرة كالرصاص، تقتل وتشوه وتُمثل بالجثمان:

- أنا لا أخون..

سَكَنَ لدقيقة أو يزيد، سَكَنَ حد ظني بأنه قد اكتفى، انشغلتُ بعملي وأفكاري تتناطحُ كثيران هائجة بين ثنايا مخي، حتى أوشكتْ جمجمتي على الانفجار.. إلى أن نطق بنبرة محايدة، لا.. كانت باردة ومُقتحمة:

- الخيانة قد تكون.. فكرة!..

رفعتُ بصري إليه والجنون يتجسد محتدمًا في المسافة القصيرة بيننا، بهياج على وشك الانفلات من زمام مخاوفي:

- ما الذي ترمي إليه بالضبط!..

كرَّر بسمته المخادعة الماكرة، البسمة التي تقول لي بوضوح: "أنا أعلم وسأنتقم منك.. سأفضحك"، بسمة ثعبان سام وقعتُ في مرمى اقتناصه:

- اهدأ..

مط شفتيه وشد جذعه كأنما يستعد لانقضاضة:

- يمكن إثارة انفعالك دون جهد..

زاغتْ عيناي بينما تتابعان تحركاته، نهوضه، اقترابه، جلوسه على طرف مكتبي إلى جواري، ضغط قبضته فوق كتفي:

- أنتَ تُجرد كل الأمور يا جارِم يا صديقي، لا تمتلك سوى لونين لا نَسَقَ بينهما..

حرَّك يديه كلٌ لجهتها، يفرد راحتيه معددًا ببساطة:

- أبيض.. أسود، بينما الحياة رمادية..

نطق كلماته الأخيرة مازجًا كفيه ببعضهما البعض، انشق ثغره عن بسمة عابثة أعرفها حق المعرفة، بسمة طمأنتني لثوانٍ ووجهه يميل ليقابلني:

- وزرقاء وخضراء وبنفسجية..

ثم بوقتها أتتْ الغمزة الوقحة لتناسب استطرادته:

- وحمراء.. كليلة حب!..

كِدتُ أعود لهلعي لولا أن أردف بجدية:

- ابتعد عن الثقب الذي يحدد محيط رؤياك، وافتح الباب..

ضم قبضته بعزم.. بحسم، بصلابة أرجفتني:

- حطمه إن أردتْ، واقتحم الدنيا عنوة..

ربما يعلم.. ربما لا يعلم!..

ما أعلمُه أنا؛ أنني لم أعُد الرجل الذي ربَّتْه أمي وأنفقتْ عليه عمرها، الذي زرعتْ فيه أخلاقه ورجولته فدمر كليهما بلحظة زلل..

قُبيل عودتي لبيتي قُدتُ سيارتي بلا وجهة أو هدف، لساعتين استكنتُ لذعري من فَعْلتي، غرقتُ في إثمي وفتشتُ عن إياب.. عن توبة، تمنيتُ أن أمحو الأمس من تاريخي لكن الزمن لا يعود إلى الوراء مهما بذلنا في سبيله كل الأمنيات..

عندما أوقفتُ السيارة لجانب الطريق محاولًا التخلص من شرودي تعرفتُ الحي، الشارع، محل الزهور ومطعم المأكولات السريعة على ناصيته..

المبنى المجاور، الطابق الخامس، وضوء نافذتها المضاء..

لقد عُدت.. عُدتُ لمسرح جريمتي..

أدرتُ المحرك وانطلقتُ بجنون مفزوع، كيف حفظ عقلي درب العودة إليها!..

فتحتُ باب المنزل ووجدتُ "مَرسَى" من خلفه، هرولتْ إليّ، احتضنتني، بكتْ وقبلتْني، فركتْ كفيها واستسلمتْ لسيل الدموع فحيرتْني.. أخافتْني، لو عرفتْ لَمَا اقتربتْ ولو لَمَ تعرف فلِمَ تبكي!..

أمسكتْ بكفي، سحبتْني كُلي وهي تريحها فوق بطنها بنحيب مبتهج:

- أنا حامل..

بإثرها ارتمتْ فوق صدري تنشج ذاهلة:

- حامل جارِم..

بُقعة النور في أشد لحظاتي حُلكة..

سأصبحُ أبًا..

وخنجر الهلع يطعنني في أكثر أوقاتي سعادة..

أنا خائن!..

حلم-هن 2022

صابرين الديب

حلم - هن 2022

<4>

لعنة التراب

أنتَ دَنِس.. خطيئتك عارية تفضحها أبصار الخلائق، أنتَ خاسر..

"أي نوعٍ من الحياة هذه!.. عندما يصل الإنسان ليتعجب من عدم قدرته على التمييز بين يوم أمس ويوم غد"..

ملعونٌ أنا بكلماتِ "موراكامي" التي تسطُر مأساتي في حروف معدودة، تلك الرواية اللامنطقية التي كرهتُها ولعنتُ كاتبها نفسه لأنني ظننتُه أفضل من ذلك..

"نُعاس".. امرأة لم تعُد تنام، أظنه كان يُطبق مبدأ "لا يهم أن تصل، ما يهم أن تستمتع بالرحلة".. وفي الحقيقة عندما قرأتُ روايته لم تُعجبني الرحلة ولم أصل لشيء. أخبرني سيد "هاروكي" ما السبب الذي منع عقل تلك المرأة من النوم!.. وما مشهد النهاية الأحمق ذاك!..

أتذكرُها الآن لأنني أمرُ بما مرتْ هي به منذ يومين، أنا ببساطة.. لا أنام..

فقدتُ تمييزي للوقت، الصُبح والمساء، النور والظلام، أتظاهرُ، أدعي، أبتسمُ بفرحةٍ مبتورة، مفصومٍ عنقها بمقصلة الخطيئة والجزع، لم أذهب لعملي ولم يتصل بي أحد، لا صديقي ولا...

اعتصرتُ أجفاني أطردُها من ذهني، من خيالاتي، من شتاتي وصراعي مع ذاكرة مطموسة تسعى بخبث لبَثِّ لذة محرمة في عروقي، كنتُ أريد أن أنسى لكن كل شيء يقع عليه بصري ينعقُ في وجهي بزللي..

أُجاور زوجتي بفراشنا، رأسها عند قلبي، تبدو هادئة، مرتاحة، ناعمة كأنما نبضي يمنحها سكينة.. أُحدق في العتمة، أُنصتُ لنسمة تُعجل باحتضار الصيف، تُثبتُ حضورها عند الستائر المسدلة، في ظلٍ مبهمٍ يتراقص على السقف وطنين في أذني يَصمُني بخيانتي كل يوم.. كل ساعة وثانية..

أشتهي النوم ويتمنع، يتدلل، يتفلتُ من قبضتي فتلامس أناملي طيفه المتلاعب باحتياجي، أتنفسُ بعمق.. ببطء، أبتلعُ الهواء بسأم، بسقم.. يجرني ذهني عنوة إلى ليلة قريبة، إلى أخرى.. إلى ساحرة تقتحم أحلام يقظتي لتُذكرني بمذاقها..

أزفرُ بغضب.. أُعلن مقتي لنفسي، أتعوذُ من شيطاني، أفتشُ عن ملاذ آمن يعيدني إليّ.. إلى الرجل الذي أعرفه وعاشرته عمري.. كيف تماديتُ!.. كيف كسرتُ قوانيني وتخطيتُ كل حدودي!.. كيف خضعتُ لرغبة لم تحركها في أنثى من قبل؛ فحتى زوجتي كانت...

حسنًا.. مجرد زوجتي!..

نعم تغيرتْ معي، ونعم تبدلتْ مشاعري ومشاعرها التي ألمحُها في عينيها كلما نظرتْ بعيني، كلما حاوطتْني بعنايتها واهتمامها، كلما

أظهرتْ سعادتها لأنها تحمل طفلنا.. طفلي، نعم هي مسكني الوحيد ومَن لي مِن الدنيا، ونعم لا أريد سواها..

لم أكُن أريد!..

نفضتُ عُقم أفكاري بعنف أنفيها خارج أسوار عقلي، اعتدلتُ أنسحبُ من جوارها، أتركُ الغرفة بتأنٍ، متفاديًا إزعاجها، أذهبُ لغرفة أمي..

أحنُ إليها، أُقِرُّ لطيفها بخطيئتي فتلعنني. أعتذر، أُصرِّحُ بتوبتي فتشيح بوجهها عني.. لا تقبلني. أتوسلُها، أستجديها، أبكيها ويخالط عبراتي وسوسة الغواية وملامح "فكرة".. ابتسامتها، لمستها، قُبلتها..

يتبددُ الطيف فأركنُ لوحدتي، يتلاشى بنظرة خيبة وحزن، يأسى لحالي دون عتَب، يرحلُ عني وأرحلُ عن روحي..

أتى الصباح، لم تكُن بي طاقة لمواجهة "مَرسَى" وتأمُلها الفائض بالتساؤلات، ارتديتُ ثيابي وغادرتُ لعملي بلا طعام، فقط قدح من القهوة السوداء كثيرة السكر علَّها تكسر مرارة حلقي ويومي، بالعمل كان هو ينتظرني.. يرمقني بعينيه المتفحصتين، يبادر كما اعتاد:

- هل أنت مريض!..

هززتُ رأسي بنفي صامت، تحرك يقابلني، يتمعن في تفاصيلي الظاهرة والباطنة، يقرأُني فأشيبُ رعبًا بين سطوري وحروفي، يعتمد الجدية مسلكًا لا يُلائمه في اهتمام:

- لم تتغيب عن العمل من قبل..

لم أجد جوابًا سوى ما همستُ به في بهجة نصفها حقيقي والبقية تنوء بالافتعال:

- زوجتي حامل..

رفع حاجبيه في دهشة وتبسَّم.. لم أفهم ابتسامته، لم أفهمها أبدًا:

- مبارك..

تجاهلتُ جهلي، أومأتُ له واستكنتُ خلف مكتبي، جلس بالمثل وما هي إلا دقيقة ثم استفهم بحيرة رأيتُها صادقة:

- ألم تخبرني أنك لا تنجب!..

كلا لم أفعل!..

أو ربما فعلتْ.. الكثير يسقط من ذاكرتي المثقوبة، لكن لو أخبرته فمؤكدًا كنتُ سأقول:

- لا.. لم يكن هناك مانعًا طبيًا محددًا، كنا فقط ننتظر على أمل..

- حقًا!..

لم تُعجبني لهجته ولا حديث عينيه، عقدتُ حاجبي أريدُ البتر:

- ما الذي تهدف إليه بأسئلتك تلك؟..

مطَّ شفتيه وتشاغل عني:

- مجرد تساؤلات.. لا تُشغل بالك..

ولم أفعل.. أنا لا أحتاج لمزيد من الضغوطات على صوابي المُتصدع، انغمستُ في عملي، أتلهى عنه وأغضُ الطرف عن كل ما يحاوطني.. انتهى اليوم ففررتُ قبل أن أتعثر بها..

ليلتها غرقت في "مَرسَى".. أخذتُها لعمق بحر ظلماتي وغصتُ بها للقاع، أتوقُ للضياع فيها، للتوبة على يديها، للتيه بأحضانها.. أردتُ أن أموت وأُبعَث بقلبها، وددتُها أن تحييني، أن تُعيديني من مقبرة هزيمتي أمام إبليس، أن تُقيمني عقب سقوطي.. وهي استسلمتْ لي، لم تمانع.. ولم تغرق!..

كانت خائفة، تُلامس طفلها كل دقيقة، تتروى في القرب وتُطالبني بالتروي، تخشى عليه وبذات الوقت ترغب في إرضائي حتى مللتْ.. طمأنتُها وابتعدت، تظاهرتُ بالنوم إلى أن نمتُ بالفعل نتاج إرهاق ثلاثة أيام وليلتين..

نمتُ وأتتني هي.. "فكرة".. تتهادى بفردوس الحلم!..

أتتني في كامل زينتها كما الحياة الدنيا، تغويني مثلما تغوي البشر، تُدنيني، تمنحني، تُذيقني حلاوتها، تُشبعني بلذتها، تسحبني لعالم الضلال، لوهم التمني ورغبة الوصول، تُغرقني.. وتغرق..

**

يتسيد الزمان أقدارنا، يُطوع مقاليد أمورنا تبعًا لمخططات سَيْرِه، نتبعه بلهفة الطامع، نجاريه بتملق المخادع، نُفكر أننا قد نصادقه، قد ننال عفوه فنسقط من ذاكرته؛ لكننا.. جميعنا محض حمقى.

الزمان ببساطة يبتلعنا بجوف عبوره دون أن ينظر إلى الوراء، ثم ينهش فينا الحياة..

انتهى شهر في ذيله ثلاثة أُخَر.. زوجتي تتباعد عني، تشرد، تحتد وتبكي، تعتذر بحجة هرمونية باهتة ومبتذلة، ترفضني وتتمنع بعدها تتقرب بفتور، تدفعني، وتجذبني لتهجرني بمنتصف الطريق..

كانت "فكرة" تغنيني في مخيلتي عن كل امرأة سواها.. الغضب يملؤني ويفيض من خلاياي، أجهلُ كيفية التصرف.. لا أريد أن أسأل الصديق الفاسد، فمن مثله لا يمتلك صلاحية النصح والإرشاد، وأخشى الغواية..

أخشى العودة إليها!..

أخشى تلك الأحلام التي تشبه الذكريات.. حقيقتها، صدقها، العطر واللمسة والمذاق بفمي، كأنني قربها ومعها.. كأن الهوس قد أصابني بها، أُتابعها في العمل صامتًا، تهديني بسمة فأهرب.. كنتُ جبانًا رعديدًا..

كنتُ أكذبُ على نفسي..

كنتُ أشتهيها..

وأشتاقُ لأمي علَّ في حضور طيفها نجاتي من الاستقرار عند سفح الخطيئة.. صباح أمس بالمطبخ ظللتُ أبحثُ عن مذياعها القديم بجنون ولا أجده، حد أنني صرختُ في وجه "مَرسَى" واتهمتُها بإخفائه، انتحبتْ وأقسمتْ أنها لم تفعل، قلبتُ كل جارور، فتحتُ الخزائن جميعها إلى أن وجدتُه، ضممتُه إليّ ونمت بفراشها..

في تلك الليلة؛ هجرتني "فكرة"..

وها أنا ذا.. حائرٌ، مشتتٌ، ضائعٌ في الزمن كمسافر مفقود.. وحيد كما لم أشعر من قبل، وحيد لدرجة أنه انتبه وقرر اقتحام عزلتي:

- أعلمُ أنك تتباعد عني منذ مدة؛ لكنني قلقٌ بشأنك..

رفعتُ إليه عينين خاملتين، ابتسمَ بدعم واقترب:

- ما بك!..

بماذا أجيبه!..

أنني أتوق لامرأته.. أن امرأتي لم تعُد تراني وقد حققتُ حلم أمومتها.. أن شرنقتي ظهرت من جديد لتحجبني عن العالم، منحتُه أبسط أسبابي:

- أنت تعلم، الحمل والزوجة المشغولة و...

- هل تمنعُك عنها!..

ارتبكت.. لا أحب الخوض في أموري الخاصة، في علاقتي بزوجتي، عندما نطق اسمها من قبل كنت سأقتله، لكن الآن أجهل ما بي!.. ألأن الحد انكسر وتماهى!.. أم لأنني أفكر في أخرى يُفترض أنها له!.. أشرتُ له بحرج صموت، باغتني على أثره بتقرير جاف:

- ربما علِمت بحقيقة خيانتك لها..

اختنقت.. غصة ضخمة سدتْ حلقي ومنعتْ عني أنفاسي وعيناي تتوسعان بذعر، أريدُ أن أنفي التهمة وجسدي يخونني ويُثبتها، تلعثمتُ.. تعثرتْ كل الكلمات والحروف على أطراف لساني، التصقتْ شفاهي بصمغ الكذب الساذج وأنا أُثرثر:

- ماذا!.. ما الذي تقوله!.. أي حماقة...

- أرجوك..

نطقها باستهانة ساخرة.. بنبرة قاطعة وكفه تخرسني:

- هل تظنني أبلهًا!..

بل أنا الأبله هنا.. لم أجد ما أقوله، هدير نبضي أصم أذني بينما يُكمل بلا اكتراث:

- أنت وفكرة ناضجين، يمكنكما أن تكونا معًا إن أردتما..

تدخلتُ أهمس باسمه في حذر مرتبك:

- عارِم...

- صدقني.. أنا لا أبالي..

استغربتُه، استنكرتُ ردة فعله.. هي لي إذًا!..

صابرين الديب

حصري - هن 2022

فاجأتْني أفكاري، نالتْ مني سبابًا.. لم يكن هو المانع الأوحد، لكن شيطاني تدخل.. زيَّن.. أباح وذلل وأغوى فكررتُ تصريحي بداخلي..

هي لي..

سألتُه ببسمة مصطنعة، أُمازحُ دون دعابة:

- ماذا!.. أهناك أخرى!..

ثنى جانب شفتيه عابثًا، ماكرًا ولم يُفصح بجواب مباشر:

- ربما..

تغضن جبيني.. شردتُ متوترًا ونفيتُ تهمتي وأنا متلبس بها حتى النخاع:

- عارِم.. أنا لم أفعلها عامدًا، ليلتها.. أعني...

أشاح بيده يُسكتني، تموج نظرته بقتامة لم أُدركها:

- أخبرتُك أنني لا أهتم..

كان بين جفنيه وحشية تعجبتُ لها، أرجفتْني.. تراجعتُ في جلستي بحذر وهو يشد قامته ثم يشعل تبغه:

- لم تُجِب عن سؤالي..

نظرتُ إليه مشتتًا، أوضح بحزم:

- هل عَلِمَتْ مَرسَى بخيانتك!..

نطق اسمها.. وأُجبِرتُ على التغاضي رُغم قسمي السالف، حلَّلتُ مواقفها، عُدتُ لما بيننا بذهني في ومضات مخطوفة، أُفكرُ وأتوه، أنفي.. لأنني لا أريد التصديق:

- لا.. لا أظن..

نفث دخانه دافعًا بالضباب أمامه، غلَّف وجهه فظهر من خلفه مموهًا، مخيفًا:

- دعني أخبرُك بما أفكرُ به..

سحابةٌ أخرى.. نفسٌ بطئ.. أعماقي تثور ومعدتي تتلوى:

- أنتَ خُنتَها، هي علمتْ، قررتْ عقابك.. خانتْك بالمقابل..

انتفضتُ من مقعدي فسقط أرضًا بدوي مزعج، صرختُ فيه وحنجرتي تتمزق:

- ما الذي تهذي به!..

لم يأبه لصرختي والضباب يتضاعف، يُصيبني بالدوار:

- خانتْك.. وها هي تحمل طفله..

هنا تجدد السقوط..

سقطتُ في بركان خامد، أزِفت ساعة ثورته..

**

لا يمكن أن يضرب أحدُهم رأسَك بحجر وتظل منتصبًا، واعيًا.. لا يمكن أن يغرس في قلبِك خنجرًا نافذًا وتبقى حيًا.. لا يمكن أن يُزلزل أركان روحك وتكمل صلبًا، قويًا، متماسكًا..

أثار شكي..

أثار هوسي..

أثار هلعي..

وفجر كوامن حمية الجاهلية بعروقي حتى أنني ليلتها سهرتُ إلى جوارها أُراقبها في انتظار إلى أن راحت في النوم، تناولتُ هاتفها وبإصبعها فتحتُه، على جانبي من الفراش والغطاء يخفيني بالكلية تصفحتُ كل حساباتها، راجعتُ أرقامها، تأكدتُ من أنني لا

صابرين الديب

أجهل واحدًا.. لكن شيطاني قبل زفرة الراحة ظهر في الصورة وأعماني، هي ليستْ غبية أو ساذجة.. يمكنها أن تَغُش وتُدلِّس، باستطاعتها أن تُخفي علاقتها بكائن من كان لو أرادتْ..

أعدتُ الهاتف قربها وبارحتُ الغرفة، رعشة صقيع كانت تدمر خلايا جسدي، مكثتُ أدور حول نفسي، أخطو من جدارٍ لجدارٍ وأفكرُ بجنون، أثق بها حد أنني لعنتُه حينها وهددته بقطع علاقتي به إن أساء إليها فاعتذر..

اعتذرتْ كلماته دون النبرة والنظرة وتغاضيت..

أثق بها ولا أثق بي..

أخشى أن ترد لي خيانتي بالفعل، طيلة أكثر من عامين لم ننجب، كيف حدث ذلك بغتة!..

هرولتُ عائدًا لحجرتنا، عند جانبها من الفراش وقفتُ أتأملُها، أُدقق فيها، أراها تتقلب ووجهها الناعم يبتسم كأنما حلمها يُسعدها، تئن برقة كقطة ثم ترتاح في نومتها. بطنها الذي لم ينتفخ بعد محط أنظاري، أكادُ أخترق حُجُبه لأكشف عن طفلي بأحشائها، ترتجف عضلة فكي وأكبتُ هياجي بعُسر..

رقدتُ بمكاني وقد هرب سلطان النعاس من حضرتي، أتى الصباح محملًا برياح الغضب، محترقًا بالحمم، ساكنًا بقعر جحيم أفكاري.. مرَّرتُ الوقت باعتيادية، تناولتُ معها إفطاري، داعبتُها وابتسمتُ لها، قبلتُ جبينها وتظاهرتُ بالرحيل لعملي ولم أرحل..

عند ناصية شارع جانبي يرى مدخل بنايتي؛ ربضتُ بسيارتي كضارية صبور يتربص بفريسة غافلة في رحلة صيد..

انتصف النهار.. هاتفتْني مرة تُطالبني بإحضار وجبة طعام جاهزة لأنها متعبة ولا تريد الطهي، ومرة أخرى تشتهي بعض البرتقال.. جاوبتُها في المرتين بفتور مستجيبًا لرغبتها، جاء موعد رجوعي للمنزل، لم تخرج.. لم تقابله، ولم ألمح رجلًا غريبًا يصعد إلى المبنى..

تكرر الأمر مراتٍ ومراتٍ، أهملتُ عملي فنِلتُ خصمًا من راتبي الهزيل في حقيقته.. لم أحادث شريكي، كنتُ أدلف للمكتب جامدًا، باردًا دون كلمة.. أغمرُ رأسي بين أوراقي وحساباتي إلى موعد الانصراف، والغريب أنه تباعد بالمثل، لم يحاول مصالحتي.. الأدهى أنه غاب كذلك في حضوري، اتقدتْ ظنوني واحترقتُ بشكوكي..

لِمَ أراد أن يتعرف إليها من قبل!..

لِمَ بذر الشك في تربة عقلي الخصبة!..

لِمَ ترك "فكرة".. بل قال: خذها، هي لك!..

لِمَ يتجاهلني كما أتجاهله!..

هذا الصباح لم يظهر، لكن هي ظهرت.. على باب المكتب بفتنتها التي تسرق مني نبضي، تهديني بسمة عذبة وصوتها المنغوم يهمس من بعيد:

- أفتقدُك جارِم..

تقتلني..

أزدردُ لعابي وأرمشُ بضعف رجل في محراب غوايته المحرمة، لذتها في حرمتها.. أرتبك، أُجاهد للابتسام وتخونني شفتاي.. تدنو مني وتنقر بأظافرها المطلية سطح مكتبي:

- لِمَ لا تأتيني الليلة!..

لَمْ أُجِب، لن أفعل..

لن أذهب..

لن أُكرر الخيانة وأُعيد الخطيئة، لن أغرق في الإثم.. الذنب مازال ينهشني والندم يفترسني من رأسي حتى أخمص قدمي، يتصاعد مُبحرًا في أوردتي ويتخثر مع دمائي.. أموتُ به ولا أريدُ أن أموتَ عليه..

تُتمتم قبل رحيلها بوعد اللقاء واللهفة:

- سأنتظرُك..

تنصرف.. ومن وراء خطواتها يظهر هو، يرفع حاجبه بخبث.. بلا حديث، يرسم بسمته القميئة لتحتل فمه، يعمل ويتناساني..

في البيت تُلاقيني "مَرسَى" مجهدة، شاحبة وباردة..

أُجاهد لإسعادها والتغافل عن جمودها.. الليلة أُريدها أن تغمرني في بحرها، لا عودة للسطح، لا طفو، لا قوانين فيزيائية ستردعُني عن الضياع أو النسيان والخلود إلى رُكنها الآمن..

أضمُها، أُقربُها وأقترب، أُقبِّلُها فتنفر.. تدفعني، تبعدني وتهتف بقرف:

- يا إلهي جارِم.. هل تدخن التبغ!..

تغضن جبيني بتقطيبة حائرة وأنا أعيدها إليَّ، لكنها تصر على التنائي:

- بالطبع لا، تعلمين أنني أكرهه..

تعاند بتصميم يحنقني:

- رائحتك..

أتذكر زميلي الذي يُحول مكتبنا المشترك لساحة حرب غارقة في سحب الدخان:

- زميلي يفعل، والرائحة تعْلَق بي..

ترمقني بشك وتنهض ممتعضة:

- لا أطيقُ أنفاسك قربي..

تعتزلني، تُقصيني.. تطردني بسلاسة الأمر المنطوق:

- اذهب لغرفة أمك من فضلك، أريد النوم..

رميتُها بنظرة فاترة.. بعدها استسلمتُ وذهبت!..

لم أذهب لغرفة أمي، بل إليها.. استجبتُ لغضبي، أذعنتُ لشيطاني، خضعتُ لشهواتي وطرقتُ بابها.. فتحتْه تقابلني

بسحرها.. بألقها وبهائها، بجاذبيتها التي أسقطتني طائفًا في مدارها..

أدخلتْني، شدتْني لحرمِ طُغيانِها.. قربتْني وأغلقتْه!..

**

"مَرسَى" تلد..

تسعة أشهر تامة مرتْ كالبرق الخاطف.. تخطفني قسرًا تحت جناحها بكل مخاوفي وشكوكي واعوجاج أفكاري..

تتباعد هي عني إلى الحد الذي لم أعُد أعرفُها معه، مشاعري الوليدة تختنق في مهدها، وتملُكي لها يتضاعف كأنني أيقنتُ بداخلي أن آخرَ امتلكها بالفعل..

وأقتربُ من "فكرة"..

أقترب كثيرًا حد التيه، حد الامتزاج، حد الغيرة ومخافة السؤال عما فات.. يُريحني السلام إلى جوارها، يُعجبني دفء أحضانها ورقتها وغنجها، تأسرني فتنتها ونفحات أنوثتها، كسحاب يُمطر هَتُونًا على قلبي وجسدي فيرويني..

يمضي وقتنا المسروق معًا سريعًا فأفتقدُها قبل الرحيل عنها، تسألُني البقاء ويمنعني قيدي الغليظ إلى زوجتي، إلى أم طفلي.. تتذمر، أُصالحُها وأنتهي بي عائدًا إليها جائعًا للمزيد..

تمدحُني، تدللُني، تشيدُ بي في العمل، وبيننا تتعلق برجولتي.. بأماني وعناقي، تخبرني أن ملامحي تجذبها.. أن لحيتي الكثة المهذبة تضفي على مظهري مهابة، أن عينيَّ المتناقضتين ساحرتين، أن الزُرقة في إحداهما تُغرقها كما البحر.. والعسل في الثانية يُشعلها كما لو أنها تسافر إلى الشمس..

أبتسمُ وأمتلئ بالغرور.. أنتفخُ بذكورتي، بإعجاب امرأة مثلها، ألحظُ الحسد على وجه صديقي -الذي ما عاد صديقًا كالأمس- وتهرُبه مني..

أُفرطُ في شكوكي وأُغالي، تتوالد ذاتيًا وتتخلق من ظهر بعضها بعضًا لتتفشى بصدري كالنار في الهشيم.. تتعكرُ سعادتي بشوائب أوهامي فتكسرها، أبغضُه وأنقمُ على زوجتي التي حرمتْني حتى غيرتْني، وفترتْ على يديها بقلبي مشاعري..

ظلتْ تصارع في مخاضها لنصف يوم، بنهايته حملتُ ابني بين ذراعي، كان صبيًا، ويالها من هدية قدر..

بإثر إجازة قصيرة مكثتُ فيها إلى جوارها لأُراعيها وأعتني بها وبطفلنا، عدتُ للعمل.. أحملُ فرحتي على وجهي وبين كفيّ،

أُوزعُ الحلوى والشموع على زملائي، أفتخرُ بثمرة صلبي وأُريهم صورته التي تحتل هاتفي..

ويراها هو.. يبتسم بلا معنى ويجلس بصمت، أسأله وقد جعلني وصول ابني لدنياي أكثرُ رفقًا وأهدأُ نفسًا، جعلني أريدُ وصْلَ ما انقطع:

- ألا يشبهُني!..

مط شفتيه دونما اكتراث، قذفها صلبة.. حادة بوجهي فأدماه:

- لا..

ضايقني، وقبل أن أرد عليه بحنقي الذي حفر حضوره فوق تقاسيمي، استطرد بنظرة يتوارى بين تفاصيل خطوطها مكر الدنيا:

- يشبه أمه أكثر..

لم أصدق ما قاله.. لم أصدق ظنوني والطريق الذي سلكته أفكاري بجموح وجنوح وثورة:

- وكيف تعرف ملامحها؟..

سألتُ والمسافة بين حاجبيّ تلتحم التحامًا، قطبَّ لثانيتين متوترتين أشعلتا فتيل خبالي.. حقنتا شراييني بسمومٍ تخصه، بلوثة تخصني:

- لمحتُ صورتها في مرة على هاتفك..

أنا لا أحملُ صورها، لا أتركُ هاتفي مفتوحًا قربه، لا يمكن له أن يدرك ما أَدركَه إلا إن رآها.. فكيف رآها!..

الريبة مضغتْني بين فكيّ وساوسي، هرستْني وابتلعتْني لتهضمني على مهل، تهضم روحي الوجلة، وتبصقُ في وجهي خيانتي باسمة بسخرية واستهزاء..

تُعلمني أنني أحمق إن آمَنْتُ بنجاة، إن أَمِنْتُ ظهري من طعنة غدر..

عقب الدوام ركضتُ لملاذ راحتي، ارتميتُ متهدمًا، شاردًا قربها، عانقتْني وهدهدتْني، تشبثتُ بها ضائعًا، مشوشًا، سألتُها وخوفي من الجواب يُبعثرني:

- ماذا لو علمتِ أن زوجك الراحل قد خانك!..

قابلتْ بصري الزائغ بنظرة متفحصة، ردتْ بصرامة قاسية لم أعلمُها عنها:

- كنتُ سأخونه بالمقابل، سأقتل قلبه ورجولته وروحه قبل أن أرحل عنه..

انفعلتُ.. تضايقتُ وأعلنتُ ضيقي وغضبي:

- تدنسين شرفه!..

- هو دنسَّه بالفعل..

- هو رجل..

طالعتْني بدهشة كأنما تتعرفُ ذلك الجانب مني فلا يُعجبها، تباعدتْ عني وتبسمتْ ببرود، بمكابرة:

- وأنا امرأة، ولا فارق بيننا..

اقتربتْ مجددًا، ربتتْ على وجنتي وإبهامها يُمسد تقطيبة جبيني، كأنما تُخفف من حدة المشهد الذي احتدم بلا مقدمات وبلا معنى:

- يمكن للمرأة أن تفعل أي شيء لتؤذي رجلًا أهانها وجرح كرامتها وقلبها..

كان ذلك كثيرًا عليَّ، لم أتحمله. نهضتُ متعللًا بالزوجة والرضيع، غادرتُها أدورُ حول مركز دائرتي الجحيمية، أحترقُ بالنار، أتفحمُ وأعودُ حيًا لأحترق، وتستمر الدائرة لأهلك وأنجو ألف مرة..

تلك الليلة كانت طويلة، أطولُ من عمري بأكمله وأنا أحملُ طفلي، أُدققُ في ملامحه المنمنمة، يفتح عينيه لأسقط في دُجنة مقلتيه كأمه، أُراقبها ترتاح على الفراش في نعاس قلِق إلى جواري وأُراقبُه..

أكرهُها وأكرهُه.. أشعرُ بالذنب، أحزنُ وأعلنُ ندمي وأُقبِّلُه..

ليلة لم أَنَمْ خلالها كأنما اعتدتُ رُفقة أرقي وظلال مخاوفي، ابتلعتُ إفطاري بمشقة، أغصُ به محشورًا في حلقومي فأختنق، دفعتُه بكوبٍ من ماءٍ مثلجٍ علَّ سعيري يهدأ.. ينطفئ..

في العمل كنتُ منشغلًا، ساهيًا، أخطأتُ مرتين.. عند الثالثة أظهر اهتمامه:

– لا تبدو على ما يرام..

لم أُجِبه، هو محور شكوكي الأول فكيف أنظر في وجهه وأدعي شبه صداقة مكذوبة!.. استمر بثرثرة بغيضة:

حلم - فن 2022

صابرين الديب

- كيف حال الصغير وأمه اليوم!..

رفعتُ ناظري إليه بشراسة افتر لها ثغره عن بسمة خبيثة.. تتلاعب بهدوء أعصابي فتُبدِده:

- عيناك كالرصاص يا صديقي..

لم أحِد عنه وكذلك هو، معركة تعالى خلالها صليل السيوف ودوي المدافع دارتْ في سكون بين بصرينا، ثوانٍ امتدتْ بنا ونحن نطالع بعضنا إلى أن قطعها من اللاشيء بسؤال مخبول:

- هل تأكدتَ من خيانتها أم ماذا!..

غادرتُ مقعدي كعاصفة أقتلعُه من مكانه، أُقيمه وأَدفعُ به إلى الجدار، أُحاصِرُه، أهسهسُ في وجهه كأفعى تجرب القنص للمرة الأولى:

- إياكَ أن تذكرها بسوء..

تحداني دون أن يحاول التحرر من قبضتيّ:

- مشكلتك أنك تظنني غبيًا، أنا أتابعُك منذ ذلك اليوم.. أعرفُ عن تماديك بعلاقتك مع فكرة، أُدركُ ابتعادك عن زوجتك وسعادتك المنقوصة بطفلها، أرى نظراتك الشاردة وغيابك المتكرر عن العمل..

ضربتُ ظهره بصلابة الحائط معنفًا، مذهولًا من حقائق يذكرها كأنه يراقبني:

- ولِمَ تهتم!.. ما الذي تريده مني؟..

تخلص من يديّ ودفعني للخلف بخشونة، عدَّل ثيابه واسودتْ نظرته تُنذر بالسوء:

- أنا فقط أعتني بك، أهتمُ لأمر صديقي الحائر، المشوش، فاقد الثقة..

وكزتُ صدره بسبابتي، آمره بتركي وشأني:

- اهتم بشئونك الخاصة وابتعد عني..

استدرتُ أتراجعُ عائدًا إلى حيث كنتُ، أتعاركُ مع أنفاسي لتهدأ، وأتوسلُ نبضي ليتوقف عن الركض المُهلِك.. أصارعُ حتى بتر صراعي وأعلنَ الحرب من جديد:

- يمكنك أن تقطع الشك باليقين!..

تصلبَ جسدي قبل خطوة تالية، موقنًا من كونه سيُكمل بلا انتظار لاستجابة مني:

- قُم بإجراء اختبارِ الحامض النووي..

استكنتُ متلحفًا بالصمت الواجم، متقوقعًا بزاويته القصية، نائيًا عن مسرح أحداث تلك الحكاية الوهمية..

نعم.. رواية سردها وهْم، أحداثها وهْم..

هو طفلي، صغيري، عطية قدري، مغْنَم صُلبي..

نعم.. صرختُ بها في وجه شَكِّي حتى تعاظم وتضخم ووقف قبالتي يحتقرني، يسخر مني ويُقهقه عاليًا بينما يشاهد بلاهتي.. يحضُني حضًا على فقدان الرشد..

يحرضني لعمل الاختبار..

والزمن ينهشني قيد الانتظار..

ثلاثة أسابيع وخمسة أيام، ثم أتتْ النتيجة.. سلبية!..

<5>

خطيئة الحجر

ستظلُ بعينيّ نفسك مثاليًا؛ حتى ترتطم بالقاع.. وتبقى فيه!..

الجهل رحمة، الكذب سكينة..

الغياب أمان، الرفض راحة..

الإنكار ترياق!..

والمعرفة هي الفتنة.. التمرد، الانتفاضة.. الثورة، الجنون..

الهذيان!..

كيف نهربُ من الحقيقة عندما تضربنا على أدمغتنا بمعول الصدمة، حينما تشُق صدورنا بفأس الفَوَاق وقد رقدنا بوضع السكون، بينما الروتين يُظلل بحيلةِ استمرارِه اتكالنا وراحتنا في ديمومته!..

كيف نتهمُها بالزيف عندما تُحطم فينا كل صلابتنا، تُفتت تماسكنا وتُضعضع ثباتنا فننهار بخزي، بعجز.. بقهر!..

كيف نجحدُ بها عندما تهيل على خديعة الحياة ترابُ الفناء، وتتراقص هازئة منا بوجوهنا!..

ليس طفلي.. لم يأتِ بنصفه مني، هو ابن الشيطان. وهي خائنة، فاجرة، هي عاهرة، ساقطة..

جثمتُ بمقعد سيارتي كالجثة، تتنازعني المشاعر كافة، أغرق وأطفو وأختنق في الثانية الواحدة ألف مرة. ألهثُ مكافحًا لالتقاط بضع دفقات من الأكسجين وتعاندني رئتاي، تنطبقان بين أضلعي. تحاصرني مخاوف الأمس واليوم. أعودُ بذاكرتي للحظة اللقاء الأول، بساطتها، خجلها، هروب عينيها وتأملي الهادئ لها، الابتسامة التي ناوشتْ فمي حين خبأتْ هي ابتسامتها..

لِمَ كان ينبغي على القلوب أن تتدخل في المعادلة!..

أن تحبل أفئدتنا بالحب وتتناسل به الأوردة في كامل الجسد!..

أن يولد خائفًا، هشًا ويموت قبل العناق والاعتناق والامتلاك!..

كنتُ سأنهي الأمر والقصة كلها بإنهاء حياتها، أتخلصُ منها ومما علق بي من أثر، أرفعُ رأسي وأدهسُ تاريخي القصير معها.. لكن نبض قلبي يعارض، يُخبرني أنني أحمق لو اعتقدتُ في الخلاص وصدقتُ بوجوده، أن العاطفة تُكبلني، أنها كفيلة بي وبكل ثوراتي التي تتفجر بجوفي لأستعر بين ألسنة لهبها بلا أمل..

هي مُلكي وإن اشتهيتُ سواها، وإن كنتُ مع سواها، وإن خُنتُها!..

هي لي أنا.. كأنني في سباق لأفوز بها بنهايته، في حربٍ تمامِها نصر أو دمار..

كوَّمتُ دليل إدانتها -ورقة نتيجة التحليل- بقبضتي، اعتصرتُها وشعرتُ بمفاصل أصابعي على وشك التحطُم، قُدتُ السيارة

دون وعي.. بسرعة تخطتْ المسموح والممنوع إلى اللامكان.. دروب التيه التهمتْني، الضلال اقتاتَ على روحي، والضياع فتح ذراعيه ليستقبلني بأحضانه، لا يَقبل بأن يُحررني..

على غير هدى سِرتُ مغمض البصر والعينين مفتوحتين، أُسيطرُ بآلية على محيطي، والعقل غائب..

قرب مجرى النهر توقفت، الليل يزحفُ متمهلًا، متسللًا ليتسلط على السماء بدُجنته، قاهرًا ضوء الشفق، ترجلتُ ملتحفًا بالنار والصقيع يتسلى على خلاياي بمتعة سقيمة. تغلي دمائي وتفور والرجفة تنال مني في تضاد مؤلم. أغربُ عن نفسي ولا أجدُني..

أبغي الثأر لرجولتي، لكرامتي، لغرام مطعون ويُلجمني جُبني وترددي والغرام ذاته، النازف على قارعة طريق الغدْر..

أرغبُ في حل مُعجِز، والمعجزات لا تليق بي، أمقتُني لضعفي وهواني وخنوعي.. لو أن رجلًا آخرَ بمكاني لبادَرَ بردِّ الفعل ثم فكَّر..

استدرتُ وقد عبر عقرب الدقائق ستين منها، عدتُ إلى البيت، أكلتُ الدرج ركضًا متجاهلًا المصعد والقرار يتأرجح بين الشك واليقين والخوف، فتحتُ الباب ألهث، أحكمتُ إغلاقه، أخفيتُ المفتاح بجيبي، جُبتُ أرجاء المنزل بحثًا عنها.. كانت بالحمام وصوت الماء يصلني فيلسعُ أسماعي وجلدي كما الشرر..

توجهتُ لغرفتنا، أرمقُ فراشنا وأتخيلُ الدنس.. أتصورُ العهر حيًا أمام بصري، وجسدها يتمكن منه غيري، يتزلزل كياني، تتصدع جوارحي، تتهدم أركاني، يتهشم خافقي الذي اعترف بالحب مخذولًا في عمقه..

يحتل الضباب مجال الرؤية ولا ينقشع، أهرب من المشهد الماثل حقيقةً بخيالي فيدسُ تفاصيله خلف أهدابي، أسمعها تناديه.. ترجوه، تُدلل حروف اسمه على لسانها، تتساقط حرفًا حرفًا بين شفتيهِ.. ألكمُ الهواء وأنقضُ على الفراغ أخنقُه بكفيّ، أشتعل.. أحتدم.. أتأججُ وأنهشُني..

أنا بادرتُ بالخيانة، أنا الخائن قبلها والوزر نشأ من عندي..

لا يا ضميري توقف!..

لن تُلهيني عن نيتي، لن تُثبط من عزيمتي، لن تُلبسني ثوب الندم، فالجريمة لا تُرد بجريمة، والقصاص حقي أنا..

القصاص الذي أجبرني لأتسلط بناظري على مهد ثمرة الإثم، تتقلصُ معدتي وأكتمُ الأنين، تقترب خطواتي منه وتتسع المسافة بيننا في علاقة عكسية فاتها قطار المنطق، أقفُ على رأسه، أراقبُه

غافيًا في سلام.. في طمأنينة ودَعَة، أزمُ شفتيّ، أضغطُهما بين أسناني، أتذوقُ صدأ دمي، أختنقُ به، أبتلعُه بقصدٍ وأزيدُ من التهام خواطري أو تمضغُني هي وتلوكني بتلذذ..

كان يعلم!..

يؤكد عليَّ خيانتها لأنه هو.. هو من خانتني معه!..

دفعني في طريق الخطيئة وجذبها.. لعين كالمطرود من الجنة، رجيم يُفسد في الأرض ويغوي البشر كما وعد..

كيف عرفها!..

كيف وصل إليها من وراء ظهري!..

وكيف خضعتْ!..

هل أعلمها بجرمي!..

صابرين الديب
حلم - هف 2022

هل حثها على الانتقام مني.. به!..

أكانت هي العشيقة الأخرى!..

وتترد "لماذا" فتُعجزني..

قبضتُ على خصلاتي أشدُها كأنني سأقتلعها من منبتها، أصفعُني بالحقيقة والمسار الذي أُجبرتُ على التوغل فيه.. في ظلامه وظُلمه، أنا مفقود.. والقصاص حقي..

كررتُها بهمسٍ مائِج..

سأقتله!..

لكن أولًا.. سأقتل غرسه الفاسد الذي زرعه برحمها!..

تسارعتْ نبضاتي رهبة وهلعًا من قسوة تجتاح شغافي وتنقض عليها، أعتنقُها مؤمنًا وأعلنُ جحودي بأمسي، أجهرُ بكُفري بمن

كنتُ عليه، أُحركُ رأسي إلى مرآة تواجهني.. تتحداني نظرتي، تُربكني، تعلوها وحشية والعتمة تتمكن مني، أخضعُ وأُكابرُ في ذات اللحظة..

الغلظة تحتلُني، الغضب يسيطر على مكنونات عقلي وأفكاري، أهتاجُ وتحتشد الغيوم الداكنة في سمائي، يُظلم العالم، يكتسي بالسواد الحالك، ينوء بجريرته ويسقط مدهوسًا تحت أقدام الخطيئة الحية بين عيني..

أُنكسُ أعلام فخري وسعادتي. أوقنُ من قحط بذوري وجفاف السُقيا. أكرهني وأكرهها وأكره الثمر العَفِن.. أنقمُ على الحياة التي منحتْني وغافلتْني حتى وقعتُ في فخ التصديق ودُقَّت عنقي. أفقدُ نعمة الإبصار فكل ما يحاوطني مقفر، معتم كصحراء دهماء..

أتراجع، أحتار.. أفزعُ من الفكرة وأرتعبُ من التطبيق، يأتي غضبي ليهاجمُني.. يصفعُني بحقيقتي، ينتزعُني من غفوة الضمير شبه الغائب، يعيدُ رسم الصورة وحشرها في ذهني المشتت، يدفعُني فأتقدم.. أنعي الميت قبل موته وشيطاني يتحكم..

أمسكُ بوسادة، أتجاهلُ الدقات التي تطرق جدران صدري، أحفرُ ثقبًا لأول مسمار في نعشي، أتأملُ الجسد الضئيل للحظاتٍ قصارٍ هي آخر عمره، أنشبُ مخالب غضبي في وسادتي وأخنقُ بها أنفاسه، ماحيًا التردد والارتباك من قاموسي..

ها أنا ذا رجل جديد..

أحبسُ بكاءً تكدَّسَ بحلقه، وانكتمَ صداه تحت وطأة ضغطي، أرصدُ رجفاته الضعيفة، العاجزة بعين الجمود.. أتابعُ انتفاضته الأخيرة ثم السكون التام..

ها أنا ذا قاتل!..

ها أنا ذا أُصبحُ الشيطان..

فجوة هائلة اتسعتْ بأعماقي، فضاء سحيق، ممتد، خالٍ من الأشياء قاطبةً حتى كينونتي التي خسرتها في خِضَم انتقامي.. أراني في مرآتي ولا أراني، أجهلُني، أخشاني. تموت بجوانحي كل الأحاسيس، وبقايا إنسانيتي المحتضرة ترفض التشبث بي.. تلفظُني وتتقززُ مني. حينها أجدُني لا أهتم.. أفقدُ الاتزان، الخطأ يغالط الصواب ويمتزج به في تلبُس ماحق، يقتلعه من جذوره ويُصفق لي، يستقبلني كالفاتحين فقد صرتُ من أتباعه المخلصين والتمادي لم يعُد شاقًا كما كان..

ترَاخَى كل ما فيّ.. رتبتُ المكان بلا اكتراث، تركتُ الغرفة ووقفتُ عند باب المنزل، أنتظرُها.. أسمعُ تحركاتها، أظهرُ في

الصورة كأنني أتيتُ للتو، تستقبلني بنداوة هيئتها وخصلاتها الرطبة، تهديني بسمة تُفقدني تعقُّلي، أُدنيها وأدنو منها.. أسحبُها إليَّ وأسحقُ شفتيها بقبلة غاشمة كقرار جُبٍّ قاحِل..

باردة.. مظلمة.. خانقة.. مشتعلة وراغبة، تتكاثرُ عليها الأبجدية فتنهزم، والوصف يتجمد عاجزًا عن الإتيان بحرف..

تتفاجأ هي، تُفكر في الابتعاد، تحاول التَمَنُّع وتدعي الدلال.. أحملُها بين ذراعي وعلى الفراش القريب من المهد.. من القبر، أفرضُ سطوتي وأتجبر.. أُغرِقُها كطوفان فلا أُبقي ولا أذر..

أُمزقُها وأتمزقُ وعَبْرة وجيعتي تُثقل أجفاني، أحبسُها.. أحجبُها عن واقعي وأسقطُ معها وبها، أنتهي إليها وأتماهى فيها، تبتعد منهكة وبسمتها تستغرب.. تتعجب:

- هل تشتاقني إلى هذه الدرجة!..

حدجتُها بنظرة مبهمة أربَكَتْها:

- هل اشتقتِنِي أنتِ!..

هربتْ من عينيّ إلى أحضاني برجفة:

- بالطبع..

رفعتُ وجهها إليَّ، أعتقلُ عينيها بسَجْنِي:

- هل يمكن أن تكرهينني في يوم ما مَرسَى!..

أصابتْها دهشةٌ حقيقية، بخيالي كانتْ صنيعة الافتعال:

- لا.. لِمَ تسأل ذلك السؤال غير المنطقي!..

لم أبالِ بجوابها، أكملتُ تحقيقي أطعنُ في صدقها، وساوسي تتهمها بكل جُرم سبق وقمتُ به أنا:

- هل باستطاعتِك أن تخونيني!..

وربطتُ ضميرَ الفِعل بي.. ارتعدتْ بانفعال ساخط، تنأى عني، تُطالعني شزرًا:

- هل فقدتَ عقلك!..

اعتدلتُ أوازيها، أجذبُها وقبضتي تتحكم بفكها.. تكاد تكسره، تطحنه:

- ليس ذلك هو الجواب الصحيح..

خوفَها نُقِش صريحًا فوق ملامحها، ازدردتْ ريقها وتعلقتْ بساعدي تئن بألم:

- جارِم.. أنت تؤلمني، ما بك!..

حررتُها بغتة، اعتذرتُ بقصة كاذبة:

- آسف مَرسَى.. زميلي خانتْه زوجته والأمر يؤثر بي..

ارتسمتْ شفقة مصدومة على وجهها وهي تعود إليّ:

- رباه.. وماذا فعل!..

- قتلَها..

اختزلتُ الردَ والعاقبةَ في كلمة جمدتْها بمحلِها، أردفتُ أنا متغاضيًا عن اضطرابها:

- وقتله..

- يستحقان!..

غمغمتْ بها مُختَصرَة في تصديق على ما قام به زميلي الوهمي، بعدها غيرتْ فحوى الحديث بفرار مريح ، التفتتْ إلى فراش نِتاج خديعتها بتساؤل فضولي:

- الصغير نام طويلًا!..

صابرين الديب

استدارتْ نحوي تداعب وجنتي:

- كم أنك محظوظ..

مدَّدُتها مُزمعًا أن أعاود الكَرَّة:

- لنستغل حظي للنهاية إذًا..

ومن بين أنفاسها وأنفاسي همستُ لها بتسلط.. باستحواذ، بهيمنة واستبداد:

- أنتِ لي مَرسَى.. مُلكي..

هي امرأتي أنا، مُلكي وحدي وستظل أسيرتي حتى الموت..

موتها أو موتي..

**

نحن البشر نوجَدُ على فطرتنا، نظلُ نثق في هذا العالم حتى تنغرس في ظهورنا الطعنة..

أفقدتْنِي خيانتها عقلي وقلبي وروحي..

أفقدتْنِي نفسي والبقية الباقية من أخلاقٍ شابتْ، انهزمتْ في مواجهة الخلل، وتَفتَّتَ تحت وطأة المعصية والعصيان..

أنا مجرد شبح لرجل عرفته في يوم مضى ولن يعود. أردتُ أن أقتلُها، أخنقُها بيدي كما خنقتُ طفلها وطفله بلا ذرة من رحمة كقاتل بطبيعته.. أعذبُها، أذبحُها، أُقطِّعُ جسدها إربًا وأُبعثِرُه في رحاب الأرض، أحتفظُ بقلبها المخادع وعشقه المزيف الذي أقر به زورًا. اشتهيتُ دمها لكن الموت لها راحة..

العذاب أن تحيا، أن تبقى..

أن تعلم بوفاة رضيعها وتنعيه..

أن تغرق في الرثاء والندم والسجن الذي سأحبسُها خلف قضبانه، لأكون سجانها وجلادها..

انتهيتُ منها والآن حان دوره!..

نهضتُ أرتدي ثيابي بعدما غرقتْ في نومٍ مسالمٍ بين ذراعيّ، جاهلةً بعمدٍ مني أن قُرَّة قلبها قد أسلم الروح.. رميتُ الجسد الهامد بنظرة خاوية من كل شعور، لا تشبهني، وانصرفت. الليل سينتصف خلال أقل من ساعة، وقت كافٍ لأصل لمسكَن "فكرة".. كانت له سلفًا، وبالتأكيد تعرف عنه الكثير مما أجهله..

على الأقل عنوانه!..

رُغم صداقتنا المتأرجحة بين الامتناع والانقياد فأنا لا أعلم عنه إلا اسمه وعملنا سويًا، لا رقم هاتف ولا محل إقامة..

فتحتْ لي تقابلني على غير توقع، دفعتُها للداخل بخطوة فظة وأغلقتُ الباب من خلفي، أُشرفُ عليها بهجوم مظلم:

- أين يسكن!..

اعتلتْ وجهها دهشة مستنكرة:

- عمن تسأل بالضبط، ولم أتيتَ دون اتفاق مسبق؟..

سؤالها فجر شكوكي؛ هل لا تزال على علاقة به!..

تخونني كذلك!..

تخطيتُها مندفعًا نحو غرفة نومها، أتأملُ فراشها المبعثر، أفتحُ كل الأبواب الموصدة وأفتشُ بعشوائية عبثية، اعترضتْ طريقي بملامح غاضبة ونظرة مكفهرة، لا تستوعب ما بي:

- ماذا تظن نفسك فاعلًا جارِم؟..

قبضتُ على ذراعها، أغرسُ فيها أصابعي بعنف شرس:

- أبحثُ عنه..

انتفضتْ تجذب نفسها بعيدًا عني وعينيها تتقدان كلهب جهنم:

- عن من!..

تتحداني أن أزيد في أسئلتي، تجهل أنني غارقٌ في هوسي ولن أتوقف عند اعتراضات فاجرة مثلها:

- عارِم سيدة فكرة.. الرجل الذي كنتِ معه من قبلي..

أمسكتُ بها بخشونة وكلماتي تخترقها كسهام حادة:

- الرجل الذي سلَّمكِ لي قائلًا أنه لا يهتم..

اتسعتْ عيناي والخبال ينبعُ من عقلي ويصبُ في دمي:

- الرجل الذي بحماقتي بادلتُه زوجتي بك!..

تملصتْ مني بثورة..

لسعتْ وجنتي بصفعة وأشارتْ إليَّ آمرة بصرامة هادرة، تحتقرُني بنظرة مذهولة.. هائجة:

- أنتَ مجنون، أنا لم أقابلُ رجلًا سواك أيها الحقير.. غادِر بيتي في التو وإلا...

- وإلا ماذا!..

بترتُ تهديدها، هاجمتُها، حاصرتُها أُثبتُّها على الحائط مكابرًا:

- عاهرة كاذبة.. ماذا أتوقع منكِ!..

صرختْ باحتراق والشعيرات الحمراء تغزو بياض عينيها:

- اذهب حالًا.. ارحل، لا تُرِني وجهك ثانية..

أدركتُ أنها لن تَصدُقَني في حرف!..

تسرَبَ لفكري بعضُ يأس، شعرتُ بأنني سجينُ اللحظة، أسيرُ العجز. لكنني لن أستسلم، لن أمتهن كرامتي وكبريائي أكثر..

تراجعتُ أبتسم بازدراء ناقم:

- حسنًا، يمكنكِ الإنكار كما تشائين.. سأجدُه بنفسي..

هرولتُ متجهًا للخارج ولم تتبعْني، قُرب الباب عرقلتني صورتي على سطح مرآة عريضة، تعثرتُ بانعكاسي.. بنظرتي..

نظرتي التي تُحدق فيّ بسخرية.. بعداوة.. ببُغض!..

شهقتُ مرتدًا خطوة واحدة والرعدة تطول جسدي بأكمله، تطلعتُ إليّ لثوانٍ مشوشة بإثرها استنتجتُ الحقيقة بعد جهد..

لقد فقدتُ عقلي وأُصبتُ بالجنون!..

هبطتُ ألوذُ بسيارتي، أحتمي بما أملك..

أجلسُ في مقعدي واجمًا، أحملقُ في الخلاء، في الليل والشارع الهادئ، ذعر مبهم يتسلل عبر مسامي، يلوث دمي وأفكاري، يقتلُني ببطء.. يفترسُني بتلذذ..

أحتاجُ أمانًا.. أنشدُ راحة، أستجدي ملجأً وذاكرتي لا تسعُ إلا منزل أمي، موطن طفولتي وشبابي ووحدتي. قدتُ إليه ضائعًا، محرومًا. ما إن استقريتُ بين جدرانه حتى أزكمتْ أنفي رائحةُ التراب.. وخنق روحي عبقُ الذكريات التي فاضتْ من كل ركن تحتفي بي، متفاجئة بحضوري..

سارتْ قدماي دون إرادتي نحو غرفتي القديمة. مكتب سنوات الدراسة والفراش المنفرد الضيق، خزانتي المحدودة والمرآة الكَدِرة بخدوش سوداء تُدلل على عمر أطول من اللازم، ورداءة صنع.. وأنا!..

أنا كنتُ هناك، أسبقُني، أُلاقيني بجمود على السطح الباهت..

لا.. لم أكُن أنا؛ كان هو!..

دلكتُ جانبيّ رأسي والفوضى تنهشني. لمحتُ ابتسامته، بريق عينيه، خبثه ومقته المُعلَن..

صوته يتسربل متدثرًا بعباءة من غِلّ لأذني، كالصقيع الذي يحاوطني:

- ماذا جارِم!.. ألا تعرفُني!..

كيف يكون هنا!.. ما الذي أتى به!.. أين هو حقيقة وأين أنا!..

تلعثمتُ دون رد، كل الحروف مغلولة، مقيدة.. مشنوقة بأنشوطة الصمت ولسانها يتدلى في مظهرٍ مقبض، اقترب مني ولم أتحرك.. واجهَني حتى شعرتُ بأنفاسه، تضاعفت البغضاء بنظرته بينما يُقدِّم نفسه بيسر وازى نطقه الأنيق لكلماته:

- حسنًا.. دعني أُعرِّفُك بنفسي..

وشد قامته يعلو عليّ فأستصغرُني أمامه:

- عارِم.. توأمُك الذي قتلته في رحم أمك..

الآن أرتطم بالقاع..

الآن سأُدفنُ فيه..

صابرين الديب
حلم- هن 2022

<6>

قابيل

نصف الحقيقة ووجهها الخفي..

أنت.. إن لم تولد!..

أنتَ خطيئة تمشي على قدمين.. أنتَ وزرٌ دبتْ فيه الحياة!..

بعض العُقد لا ينفصم عُراها إلا بتمزُّق، وبعض العقول لا تستفيق إلا بصدمة..

أيها القارئ أهلًا بك في عالمي أنا..

تعارفنا قبل سطور، وأنتَ تعرفني منذ البداية..

اسمي "عارِم".. كما الموج والطوفان والعواصف..

أنا من سيعود معكَ للحظة الراهنة، قصَّ عليك أخي "جارِم" كيف بدأتْ حكايته وذاك حقه، الآن دوري في أن أقص عليك كيف ومتى بدأتْ حكايتي!..

مهلًا.. أراك تتوتر، تتململ في جلستك وتظنها مجرد رواية مكررة عن بطل مريض بانفصام الشخصية "سكيزوفرينيا" كما تُصوره الأفلام السينمائية.. بحقيقته وبشخصيته المُتخيلة..

لا.. لا أعزائي.. أنا لستُ وهمًا، ولستُ جانبه الشرير، وأيضًا لستُ المَنْفَذَ الآمن لرغباته المكبوتة ومخاوفه..

أنا بالفعل شخصٌ آخر..

وللدقة؛ توأمُه!..

التوأم الذي أنهى حياته قبل أن يُوجد.. قبل أن يُولد، برحم أمنا المُفترض به أمانُ كلينا. مثلما شاهدتم، توأمي العزيز قاتل بالسليقة، والوحشية تسير في دمه..

يهوى قتل الصغار على ما يبدو، أنا ثم.. ابني..

أشعر أنني أضعتُكَ قارئي فاقد التركيز!..

أنتَ حائر، مرتبك، تظن أن في الأمر خدعة ما، لكن دعني أخبرك بهذا.. انتهت الخدعة قبل قليل، والآن سيكشف الساحر عن سحره حتى وإن خسر جمهوره..

انتبه جيدًا، أَعِرنِي بصرك وأَصِخ السمع.. العرض على وشك البدء!..

**

"جارِم مأمون"..

قابيل الحكاية، وهابيلها أيضًا..

خطيئته الأولى قبل الميلاد والوجود هي القتل كما ابن آدم الأكبر. في أحشاء والدتنا أنهى حياتي وأخذَها لنفسه. بعدها غادر الظُلمة لدنيا النور وتقمص دور "هابيل" بحرفية، الطيب، المسكين، الحنون، القريب من أمه حد الالتصاق المرضي..

جشعٌ في اختياراته، متطرفٌ في ردود أفعاله كما ترون، حقودٌ ويظن في نفسه عين الصواب..

صابرين الديب
حصري - هف 2022

وُلد وعاش، كبُر وتزوج، فاز بكل شيء كان ينبغي أن نتقاسمه سويًا. وبقيتُ أنا هناك.. في الظل، خلف جدار تماسكه الصلب، أُراقبه بصبر والمقت ينمو ويتعاظم بداخلي، أُشاهدُه -عاجزًا- يظفر بالحنان والحب والمرأة التي منَحَها الفتور ومنحْتُها القلب. لم يرَ فيها جمالًا، لم يتقرب منها مثلما تستحق. منذ بداية لحظات انفراده بها؛ حشر أمه بينهما كطفل أبله. أهداها النفور وصبَرَتْ..

تتساءل قارئي المثابِر لِمَ لَمْ أحتل حياته وأتملَّك!..

الأمر ليس يسيرًا كما تظن. الخروج من سجني عسير وشاق، وعبر بوابة واحدة..

أقصى لحظات ضعفه وخوفه..

وتلك لم تكُن كثيرة بقلب رجل مثله؛ جامد المشاعر، بارد الانفعالات وصموت..

لكن بعد موتها، بعد غيابها الحتمي والحاسم عن الوجود والحياة، أدركتُ أن بوابة عالمه قد انفتحت على مصراعيها أمامي..

أنا أخيرًا حر!..

أنا من سيكون، من سيكمل المسير إلى المصير. فقط يجب أن أُنهيه قبل الشروع في بدايتي..

كان عليه أن يصل للحضيض لأنهض أنا. أن يقمع الصدمة ليخفف من فجيعته، من ألمه.. وحينها أُسيطر، أَحتل، وأَحكُم..

أن يرتطم بالقاع، الظلام والختام والزمهرير، لأجبر عقله على فتح أقفاله بين يدي.. لذا؛ ها أنا ذا..

وها أنتَ معي..

راقبني بحذر.. لا تُسقط جدران حمايتك قُربي، لأنني سأستغلُ كل ثغرة على صِغَر حجمها.. وأتسلل!..

صابرين الديب

حلم - هن 2022

**

عندما تختفي البيادق من أرض المعركة؛ يُجبر القادة على تدنيس أيديهم بوسط معمعة القتل!..

وفي تلك الحرب كنتُ أنا القائد، البيدق والفارس الهمام..

وقفتُ أواجهه باحتقار، ببُغض. أُدركُ اعتقاده في كونِه قد فَقَد عقله، أنه قد جُن..

يظنني منفصلًا عنه وأنا منه.. بداخله..

أُرسِّخُ سلطاني وأسطو على ما يمتلكه بتمهلٍ، بتأنٍ، فلا يفيق إلا وقد خسر كل شيء..

أصلُ به لأضعف نقطة وأقتُلُ فيه كل أمل. أضعه على حافة الكبوة الخاتمة، المتممة لهزائمه. أدفعُه على شفا هاوية الموت لأحيا أنا..

من بين الخطوط السوداء التي تشوه سطح المرآة أهديتُه بسمتي المحتقرة ونظرتي الحاقدة، لم أدخر في وسعي جهدًا لإظهار شعوري نحوه ولن أفعل بعد اليوم:

- تبدو مندهشًا، مصدومًا يا صديقي..

تأملتُه يتراجع فيكاد ينكفئ على ظهره، يشهقُ باختناق والهواء يتعثر في الدرب لرئتيه المنطبقتين، أشرتُ إليه برفق ساخر:

- اهدأ وتمالك نفسك.. لا أريدُ لهذا الجسد أن يموت بعدما حلَّ دوري في امتلاكه بالكلية..

همسَ بحشرجة ضائعة:

- من أنت؟..

جاوبتُه بتهكمٍ باسم:

- أخبرتُك؛ توأمك الذي قتلته في رحم أمك..

تراجعت، فكرتُ وأحنيتُ عنقي مع هزة كتفين شامتتين:

- أو لنقل أنك أردتَ قتله وحاولتْ، ثم فشلتَ لحُسن حظي..

لمحتُه يسقط على طرف فراشه القديم، يعتصر أجفانه، يفركها، يضرب جبهته ويُمسد جسر أنفه بإنهاك هامسًا:

- رباه.. ما الذي يحدثُ لي!..

قهقهتُ هازئًا ومظهره يُبهج قلبي:

- لم تفقد عقلك أخي العزيز، لا تقلق..

هز رأسه بعنف كأنما سينفض عنها وجودي لو فعلها، لم أكترث بما يمر به، سأطرقُ الحديد وهو مشتعل. لا ينبغي أن أخسر خطواتي التي تقدمتُها عليه، لن أُضيع سطوتي، بادرتُ بحزمٍ جادٍ:

- تماسك وأنصِت إليّ..

رفع ناظريه تجاهي بخمول باهت، واهن، يعلوه الإنكار والواقع يصفعه رُغمًا عن أنف التكذيب والهروب.. أكملتُ دون رحمة:

- الآن حان دوري لأحيا..

اتسعتْ عيناه المختلفتين بهلع، ألم يفكر ولو للحظة أنه يحملني معه دومًا ويراني كلما نظر في مرآة!..

خلل خصلاته بخشونة، استقام يقترب مني:

- كيف!.. من أنت!..

ارتد خطوة يجحد، يرفض التصديق:

- لا.. لا.. أنا أهذي، لن أُحادث نفسي..

- أنتَ تحادثني أنا، عارِم، الصديق المزيف والتوأم المنهوب.. توأمك الذي سلبتَ منه حياته قبل أن يولد بطمعِك..

تأجج غضبي وذاك حقي:

- توأمك الأحق بالحياة..

أردتُ أن ألطمه ألف مرة وقد شعرتُ بالحرية.. بقضبان سجني تتبدد، تختفي واحدًا تلو الآخر:

- أنت لا تستحق السير على هذه الأرض، لا تستحق العيش بضعفك وخذلانك لنفسك وامرأتك وطفلك..

اتقدتْ نظرته على ذكرها، ربما لو كنتُ ماثلًا قبالته بالفعل لخنقني كما فعل بطفلي:

- لا تذكرها بيننا..

ابتسمتُ له بشراسة جليدية، على الأقل اعترفَ ساهيًا بانفصالي عنه وإن كنتُ سجينًا فيه:

- ستكون لي بعد أن أقصيك من حياتها..

أحمق..

لكَم المرآة..

حطمها وأدمى قبضته دون أن يكترث بألم..

لكنني مازلتُ هنا، أتمعنُ فيه من بين الحطام وأمارس قسوتي بلا رادع:

- حطِّم ما شئت، نهايتك أزفت..

- لا..

صرخ بها ووجع روحه يصلني فأنتشي بمذاقه، أتوحش.. تُستثار شهيتي لعذابه بهياج كقرش اشتم عطر الدماء:

- أنا أكرهُك جارِم..

نطقتُها بغلظة فظة:

- وأكرهُ أمك..

لن أناديها أُمي، لم تكن لي أُمًا البتة:

- كنتما تليقان ببعضكما..

أردفتُ غاضبًا، وقهرًا ذكرياته تتدافع لذهني وخيالي يمحصها، يراها حية:

- رحمها اختار لك أنت الحياة على حسابي..

صابرين الديب

حلم - فن 2022

قربانه هو المقبول، وأنا المنبوذ من قبل الميلاد، كأنني لا أستحق.. وهي لم تشعر؛ كأنني لم أُوجد!..

أي أمٍ تلك!..

أردتُ أن أُوجعه أكثر، أن أقتل فيه كل أثر لتماسُك أو تمسُك بالبقاء:

- وأنت تعلقتَ بها كرضيع يستحيل فطامه ما عاش من عمر..

هاجمته كصياد خبير، يجيد إطلاق سهامه في مقتل:

- أنت رجلٌ مملٌ، طفلٌ عاجزٌ باكٍ، مدللُ والدته.. وأنا كنتُ أحميك طيلة عمرك..

أخيرًا انتبه لي، تعلق بصره بي مرتعشًا مشتتًا وأنا أستطرد بنظرة كلهب الجحيم.. تليق بشيطان:

- كنتُ آتيك في أوقات ضعفك، حين تحتاجني، أُنقذك من الغرق في الرثاء لذاتك، أُدافعُ عنك.. أقتلُ لأجلك!..

تحولت الرعشة لرعدة فزع.. رعب مر على خلاياه بأكملها حتى وصلني، نبضه يتسارع في اختلال، والعرق تسلل ثلجيًا فوق جبهته وجانبي وجهه، برقتْ عيناي أراقبُه بشماتة.. أقتنصُ الفرصة وأفتشُ عن ضربةٍ قاضيةٍ أُنهيه بها:

- بالطبع لن تتذكر ما فعلتُه لأجل أن تعيش مرتاحًا، أن تستمر لخاطر استمراري أنا..

تمتم مأخوذًا، مُتهيبًا، مُترددًا بين رغبة المعرفة وراحة الفرار:

- ماذا فعلتْ؟..

انثنى جذعي أقتربُ منه، أغزوه بهمسٍ سامٍ من أعمق بؤرة فيه، أطعنُه بالحقيقة بلا تورية أو تزيين:

- أنا من قتل أخاك الرضيع، أغرقتُه في المغطس بيديّ؛ عفوًا.. بيديك!..

شهق بحدة وارتد بقوة، الآن يُمثل دور البرئ النقي بإتقان!..

ألم يقتل هو قبل قليل!..

تمّمتُ النبأ على مسامعه المبهوتة، أتلذذ بانشداه ملامحه ودقات خافقه المذعورة:

- أنا من أعدتُ مفتاح التحكم بالكهرباء لوضعية التشغيل، وقتلتُ زوج أمك العزيزة.. لتكون لك وحدك..

تكررت شهقته ودور الممثل العظيم يتمكن مني على مسرح حياته هو التراجيدي:

- أنا من كنتُ أنهض من لحظات ضعفك وخوفك لأكونَ إلى جوارك، لأهتم لأمرك، لأعتني بك..

انتصبتْ قامتي، أعلوه، أزدريه.. ولَكَم وددتُ لو دهسته بقدمي كحشرة لا يجدر بها النجاة:

- في البداية استمرأتَ دور قابيل فقتلتني، ثم تلبستَ دور هابيل وعشتَ به..

هاجمتُه بضراوة أعدمُه بالحقيقة، أُداهِم حواسه بها، أُحولها لأنشوطة إعدامه وأُصدرُ الحكم بلا محاكمة أو دفاع:

- الآن ماتت أمك التي اختارتك عليّ، الآن أنتَ أضعف من أن تحاربني.. الآن أنا قابيل..

لقد فُتِحَت لي كل الأبواب الموصدة، لم أُحاول السيطرة في الماضي لأنني على عِلمٍ بفشلي.. أما اليوم، في الحاضر فالأمر يختلف، لقد وجدتُ ثغرتي، الثغرة التي ستمنحني الحياة.. التي منها أخضعتُه ودنستُ صورته الكاملة كما يتوهم، التي معها سأحكم!..

الزوجة والحبيبة التي أحبُها أنا، العمل رُغم وجود "فكرة" التي لن تستطيع أذيتي وإلا ستتسبب لنفسها بفضيحة لن أتغاضى عن افتعالها، حتى تلك النافذة العاكسة التي تواجه مكتبه وكان يراني فيها كصديق عابث، الواقع، البيت والغد..

زفرتُ أنفاسي الحارة ألفحُه بها وليتَ ذلك ممكنًا:

- أنا سأقتُلُك..

هرول للخلف مرتاعًا كأنما سأقبض على عنقه بالفعل..

رعديد، هلوع.. والموت هو نصيبه المحتم..

أهديتُه قاضيتي في نقطة ضعفه الأهم:

- ومَرسَى ستكون لي..

صابرين الديب

حلم - ظن 2022

استعرتْ ناره كما أردت، اتجه بخطوات نفسية هوجاء إلى حيث دفعتُه، برعونة عمياء لا يُبصر خطتي:

- أخبرتُك ألا تذكر اسمها..

ابتسمتُ بسخرية مستهينة وغمزته بوقاحة:

- لقد عاشرتُها أيها الأبله..

ثم تماديتُ بسادية، أسعد بتمزيقه والخبال يطفو فوق صفحة وجهه المحتقن:

- سأذكرُها كما أريد، وأحبُها كما تستحق.. وستكون لي مثلما أشتهي..

شدد قبضتيه فنزفتْ الجريحة، تساقطتْ القطرات ترتطم بالأرض المُتربة، تولد لعنة جديدة سأهيلها بيدي على روحه:

- حملتْ بطفلي أنا جارِم؛ ألم تسأل نفسك لِمَ!..

صرَّ على أسنانه بهياج نصف مكبوت، أعود للحظاتي معها وأجبره على المشاهدة:

- الحب يزرع بذرة الحياة في رحم الموت، وأنا أحبُها..

- لا.. اصمت.. توقف..

كان يدرك أين شرد عقلي وشرد معه، يتتبع التفاصيل التي غاب عنها لتتجسد الصورة أمام عينيه، يبتلعها فيغص بها وأستمتعُ بما يعانيه:

- كذلك هي.. تحبني، أحبتني أنا يا توأمي اللدود، سقطتْ في غرامي أنا..

عجزه أشعرني بالنصر..

سقوطه..

انكساره..

لوثَتُه المتوقعة، واستسلامه الذي أبتغيه..

استمريتُ في ضربه بلا هوادة:

- أنتَ لم تكن لها رجلًا بما يكفي أبدًا..

وهزأتُ منه بامتعاض:

- لكن فكرة أخرجتْ منك شخصًا آخر، يبدو أنك تُفضل العاهرات..

رمقني بيأس أبهج ذراتي وخلاياي واحدة تلو واحدة:

- لقد كنتَ معها دومًا ومنذ اليوم الأول، لذا لم تشعر هي باختلاف عندما تقربتْ منك ببساطة بعد حفل الزفاف..

تهدل كتفيه بقنوط الخاسرين.. استدار على عقبيه بينما أشيعه بنبرة الظافر المنتصر:

- حان دور جارِمٍ في الموت ليحيا عارِم..

لم أكترث عندما غادر بخطى خائرة؛ أنا معه على أية حال..

أُخمنُ وجهته التالية، وباستهانة أقبعُ في انتظار أن يستوعب ما يجري..

أن يرضخ للنهاية ويُسلمني زمامه كفاشلٍ مطيع!..

**

نحن ننكسر عندما تُعيينا حِيَل النهوض، نستسلم لأن مصير الحرب هزيمة ونُنكر حينما نوقن من الحقيقة لكننا نخشى التصديق وحسب..

التصديق موت..

التصديق نهاية باترة لا عودة منها..

أنا "جارِم مأمون"..

لذا لا يمكنني أن أُصدق كون توأمي حيًا بجوفي، تلك خدعة من عقلي المجهد وقلبي الكسير، مجرد دفاع نفسي تقليدي يَقِيني وجع خيانتها مع صديقي، الغريب.. البعيد.. الآخر..

نحن اثنين، لسنا واحدًا كما تحاول أوهامي إقناعي!..

"الإنكار لن يُغير من واقعك أي هفوة جارِم.. تلك محض حماقة"..

تردد صدى صوته البغيض بأذني يتهكم بي، رفعتُ عيني لمرآة سيارتي فقابلتْني نظرته المستهترة، الخبيثة كخبث إبليس:

- يمكنك أن ترفض التصديق كما تشاء، لكنني لن أتراجع عن السيطرة الكاملة مهما حاولت..

همستُ من وراء صرير ضروسي وفكايّ يحطمان بعضهما البعض:

- أنتَ وهم!.. أنا مرهق، فقط مرهقٌ حد الهذيان.. سأكونُ بخير..

تضاعف تهكمه وشابهُ مقت لا يُبذل جهدًا في توريته:

- أنتَ قتلتَ طفلك؛ لن تكون بخير ما حييت..

لكمتُ عجلة القيادة بقسوة كادتْ تهشم كفي، وأنا أحتجُ على تقريره الذي يسعى لإقناع ذهني المشوش به في تهالك:

- لم يكُن ابني..

- ابنُك.. ابني؛ ما يهم أنه من صلب هذا الجسد!..

صابرين الديب

احتقرتْني نبرتُه أكثر حتى شعرتُ بالخزي.. بعُري جُرمي يفضحُني على الملأ:

- مَرسَى ليستْ امرأة خائنة، على عكسك أنت يا.. أخي..

سددتُ ضربة ثانية للمقود آلمتني بشدة:

- أنتَ من دفعني نحو فكرة، أنتَ من دسَّها بطريقي عنوة..

ندَّ عن حنجرته صوت لئيم، أجش:

- وأنت لم تَحْتَج سوى تلك الدفعة، كنتَ هشًا، مُتأهبًا للركض إلى أحضان الخطيئة..

رمقتُه بنظرة مستعرة وأنياب الوساس تبرُز، تنهشني، تنغرس بروحي:

- أنا لم أفقد عقلي..

استخفَ بي وبكلماتي ببسمة متلاعبة:

- بالطبع لا، أنا توأمُك لا أكثر..

تجاهلتُه..

لن تصبح تلك هي نهايتي، سأعرفُ الحقيقة وإن نبشتُ عنها تحت كل حجر..

تأملتُ السماء التي تفتحُ أبوابها للضياء، تمدُ ذراعيها لتستقبل الشمس البازغة برويةٍ ودفء، ترفعُها على عرشها لتتوسطها بملكية..

ليلة أخرى كالسابقات من الأرق، تقتاتُ عليَّ أفكاري طوالها بلا رحمة.

أعرفُ صديقًا قديمًا ربما يتلقفُني.. يُفيدُني، يُنقذُني.. يُخبرُني كيف يكون هو معي!..

جزءًا مني وكأننا اثنين منفصلين!..

أو ربما يوقع لي وثيقة الجنون!..

قُدتُ إليه، في السابعة صباحًا وقفتُ أطرقُ بابه بعدما هاتفتُه حائرًا وجلًا، رحبَّ بي بتوجس، صعنتْ لنا زوجتُه قدحين من القهوة وجالسني بتساؤل قلق:

- ماذا هناك جارِم؟..

بادرتُه بلعثمة تائهة.. مذبذبٌ بين الإقدام والإحجام، بين الكَرّ والفَرّ:

- سراج.. أنت طبيب...

نطقتُها وتوقفتْ التتمة بسجن فمي، ابتسمَ هو بترقب، يشجعُني بِحَثٍّ لطيف:

- يقولون أنني كذلك.. نعم..

جاهدتُ لرسم بسمة مجاملة مشابهة، امتدتْ القشعريرة لتتسلط على كامل جوارحي مع شعوري بكوني مُراقبًا:

- هل.. أعني، ماذا لو كان لي توأم ومات قبل أن يولد!..

تغضنَ جبينه كأنما يحتاج لمزيد من التوضيح، أكملتُ بتَعَسُّر:

- لم تعرف أمي بذلك أو لم تُخبرني، وُلِدتُ وحيدًا لكن...

تلجمتْ الأحرف بصدري، جاهدتُ لمزيدٍ من الشرح، تعثرتُ طويلًا حتى استنار وجهه بغتة.. كنتُ أعلم أنه سيفهمني، عاجلني بسؤال:

- لا.. لا تقُل أنك تمتلك خارطتين من الحامض النووي!..

أصابتْني صدمة غير مفهومة زلزلتني:

- ماذا!..

اندفع بحماسٍ غامر، بدا أشبه بعالم مختل سقط على كشف نادرٍ لم يرَه من قبل:

- رباه.. أنتَ كايميرا..

ارتجفتُ في جلستي والضياع يتسع بإطرادٍ كثقب أسود، ناويًا أن يأكل في طريقه ما يشتهيه مني. نهض في نشاط، يبحثُ في مكتبته المحدودة بعناية:

- انتظر..

تناول كتابًا أقرب لمرجعٍ أو موسوعةٍ ضخمةٍ بعد بحثٍ قصير، تصفحه ثم واجهني، يضع إحدى صفحاته أمام بصري فألمحُ فيها ما لا أُدركه، تكفل بالشرح وعيناه تبرقان بحيوية طفل سعيد:

- تحمل المرأة بتوأمين غير متماثلين، بويضتين مُلقحتين كلٌ على حدةٍ، ولكلٍ منهما خطها الوراثي المنفصل والمختلف، بعدها - ولسبب غير معلوم ببداية مراحل النمو- تندمج البويضتان المُلقحتان في عملية أشبه بالانصهار، ليتُج معنا في النهاية نطفة واحدة.. جنين واحد.. طفل واحد..

توقَفَ لحظة، يلتقط أنفاسه المنبهرة، وأنا أحارب لاستيعاب القنابل التي فجَّرها فوق رأسي، حيث أقبعُ متيبسًا بمكاني، جامدًا كحجر على وشك التحول لفتات منثور.. تعمق بعيني بنظرة فَطِنة توحي بإدراكه لشيء فاته:

- يا إلهي.. الآن أفهم سر تناقض لون عينيك..

قبَضَ على كتفيَّ باستجداء:

- ستدعني أدرُسُ خارطتيك الوراثتين جارِم.. ستفعل، صحيح!..

لم أكن واعيًا للحدث..

الخبر استقبلته بنصف عقل.. بنصف غياب.. بنصف تكذيب.. بنصف رفض.. وبإنكار كلي. أردتُ المزيد علَّني أرتاح، جذبتُه أعيده لمقعده وفرط حركته يثير غيظي:

- اهدأ سراج من فضلك، أودُ أن أفهم أولًا..

جاوبني بإخلاص حقيقي مدفوعًا بحماسه:

- بالطبع.. ما الذي تريد السؤال عنه!..

ازدردتُ ريقي الأقرب لأشواك حادة:

- هل يعني هذا أن توأمي مات!.. انتهى!..

أومأ بموافقة وأكَّد بكلمة:

- نعم..

كررتُ الاستفسار بضيق:

- لا يمكن أن يكون حيًا!..

أصابتْه دهشة، ورُغمها ردَّ برفق صبور:

- لا.. بعضٌ من خلاياه مدموجة بجسدك، لذا لون عينيكَ متباين.. قد تجد مناطقًا من جلدك بلون مغاير، أو حتى زُمرَتي دم.. لكن لا أكثر أو أقل..

اللعنة..

كيف إذًا!..

كيف يكون ميتًا وبخلفية المشهد يسخر مني، يقهقهُ على بلاهتي ويبرهنُ على حُمقي، والحياة تتقافز مع حضوره كشعلة نار تتوهج بعنفوان!..

قبضتُّ أصابعي وسؤال الوجع الأعظم يتعثرُ على شفتي:

- هل من الممكن ألا يكون لابني نفس حامضي النووي؟..

أردتُه أن يقول لا.. أن يُكذب حقيقة باتتْ أوضح من شمسِ سماءِ صيفٍ حارٍ، لكنه قال ولهجته تشي باستنتاج ما:

- نعم يمكن، جسدك يحتوي اثنين منهما وطفلك قد يرث أحدهما أو كلاهما..

الآن أتمنى الصراخ..

النحيب والبكاء وسكين الحقيقة الثالم يشق صدري بتمهل مستلذًا بعذاباتي..

حقيقة أولى: لم أُجَن بعد، لي توأم يريد امتلاك كل ما أملك بدءًا بحياتي..

حقيقة ثانية: أنا وبقلبٍ متحجرٍ قد أنهيتُ حياة طفلي بيديّ..

حقيقة ثالثة: ذلك لا يحدث للآخرين، بل يحدث لي أنا.. في قصتي الخاصة حيث ما ينبغي ألا يكون.. كان!..

كان يُفترض به أن يكون ميتًا لكنه عاش مدفونًا بأعماقي، ينتظرُ في جَلَد ويتربصُ في هدوء لحظة نهايتي لينهض من تحت رُفاتي..

أنا من يستحق الموت، لو أنَّ أمي هنا لأخبرتني عنه!..

أنا القاتل.. الخائن.. الخاسر في كل حرب، والوحيد على هذه الأرض المُكتظة، المُزدحمة بالبشر..

استقمتُ أغادر بيت الصديق وهو يلاحقني بتعلق طفولي أجهدني، يثرثر بما لا أسمع، ويهذر بما لا أطيق. انطلقتُ لبيتي..

لـ "مَرسَى"..

ملاذي الأخير..

أتُراها استيقظتْ وعلمتْ برحيل طفلها!..

رفعتُ هاتفي المغلق لناظري، ألقيتُه بجواري ومضيتُ إليها، وحدها تملك قرار الحسم..

حياتي.. أو موتي!..

<7>

التيه

لا توجد خيارات سهلة هنا، ولا طرق مختصرة تُمكِنُك من النجاة!

الحياة ليستْ سهلةً البتة، لا تُهدَى إليك..

الحياة يُمكن أن تُؤخذ كما الدنيا غلابًا؛ إن كنتَ تستطيع!..

لم أكُن على استعداد للتخلي عن حياتي، عن واقعي، عن زوجتي التي بدأتُ أُشكِكُ فيما بقلبي إليها..

أهو قلبي أم قلبه!..

عشقي أم عشقه!..

وماذا عما بقلبها هي.. لي أم له!..

قبل وفاة والدتي لم تكُن تبالي بي. كل ما بيننا كان فاترًا، باهتًا حد البرود. لا أطفال، لا مشاعر، لا عناية أو اهتمام. بغتة تغير كل ذلك، ماتت ملجأي الأول وظهرتْ "مَرسَى" في الصورة. تحتويني وتعانق فؤادي الحزين، تتقربُ مني وقد زال العائق الذي حال دون امتزاجي بها..

حكي-فن 2022

وكذلك ظهر "عارِم" من العدم..

لا..

ظهر من ضعفي، من خوفي، من خنوعي وانهزامي واستسلامي..

ظهر ليحتل، ليتمكن ويُسيطر. ظهر ليُخضعها، يستحوذ عليها ويمتلكها رُغمًا عن وعيي، يزرعُ فيها العشق ويرويه بغرامه، يُنبِتُ برَحِمِها بُرعمَ الأمل فيُثمر، تحمل طفله هو.. أيؤثرُ الحب، هل يُشكِّلُ فارقًا كما هَمَزَني ولَمَزني!..

يدفعُ بالأنفاس تحت الرماد الخابي، فتنبضُ بشرارة الحياة!..

تُرى هل تُميز بيننا!..

تعلم أنني وهو اثنين.. مُتنافرَين، كقُطبي مغناطيس مُتشابهَين!..

استشعرتُ ابتسامتَه المتهكمة بداخلي فأغمضتُ عيني للحظة، أشعرُ بانسحاب الروح مني، كأنني أهلكُ ببطءٍ حد الفناء التام. علمتُ الآن كيف كان التبغ يتصاعد من أنفاسي معها!.. لم يعلق بي منه، بل مبعثه أنا..

وصلتُ لمنزلي، صعدتُ إليه مُهدمًا، مهشمًا، تُلَوِّحُ نارُ الهزيمةِ ملامحي وتُكسِبها احمرار الاحتراق، فتحتُ الباب فلم أرَها بانتظاري، دلفتُ للمكان أبحثُ عنها.. توجهتُ مباشرة إلى غرفتنا وهالني مشهدها!..

متقوقعةً على الأرضية قُرب المهد، تحمل طفلنا عند رحِمِها، تُشدد عليه ضمتها وتبكي بنحيب مزق نياط قلبي. ارتعشتُ، ارتعبتُ، اقتربتُ منها أُربتُ على كتفها، نالني من توأمي غضبًا، كأنما يُحرم عليَّ لمسها. تغافلتُ عن وجوده الصاخب بعقلي، عانقتُها فتشنجَ

جسدها لثوانٍ، تضاعف بإثرها نواحُها. رفعتْ رأسها إليَّ، تمدُ يديها بالجثمان الهامد:

- لقد مات جارِم..

افتلعتُ الصدمة، انهلتُ عليها بأسئلة أعلمُ أنها لا تمتلك جوابها. سقطتُ إلى جوارها وضممتُه منها، ثم ضممتُها معه. حاوطتُهما تحت جَناحيّ ظُلمِي، وجريمتي تَجْهَرُ على سِمَايَّ بلعنتي. بكيتُ معها، لا أعلم هل أواسيها أم أواسي نفسي وأنعيها!..

شهقتْ تنكمشُ على نفسها بصدري:

- كيف مات!..

جاوبتُها من مسافة بعيدة كبَوْنِ السماء والشمس والنجوم رُغم التحامي بها:

- لا تعترضي على قضاء الله مَرسَى..

أتهربُ من جوابٍ صنعتُه بيديّ، رجفتها اهتز لها عالمي بينما صرختها تشجُ قلبها وقلبي:

- ابننا مات بعدما أتى لدنياي..

تضربني عند موطن النبض فأشتهي سكونه تحت وقع ضرباتها:

- فقدتُه قبل أن تكتمل سعادتي بوجوده..

كررتُ كلماتي الحقيقية في معناها، الجوفاء في صدورها من قاتل مثلي، والعَبْرَة تَخنقُني:

- قدره حبيبتي.. قدره..

اعتصرتُها بين ذراعي حتى وصلني أنينها المتألم:

- سامحيني..

لم تسألني علامَ أطلب السماح!..

كانت غائبة، ضائعة.. مفقودة مع من فُقِد..

تيقنتُ من أنني أسوأ منه، أرسلتُ بابني الصغير ليلاقي حتفه بنفسي. لا.. لا..

ليس ابني، لقد كان ابنه هو..

مرتْ أيام العزاء ثقيلة، طويلة، سوداء كسوادِ الثياب والمشاعر. كان صبري ينفذ ومخاوفي تتكاثر، تتعاظم بين جوانحي، أُريدُ أن أنتهي من الحياة أو تنتهي مني.. أرغبُ في المعرفة والفزع يُلجمني.. أتمنى جواب السؤال..

لو خيرتُها فمن تختار!..

"جارِم" أم "عارِم"!..

واجهتُها في شرنقتها المقفلة، تسللتُ إليها وقررتُ البتر:

- أنا سأرحل مَرسَى..

أتتني نظرتها المتشبثة، تتحدى تورم عينيها الباكيتين:

- ماذا!.. إلى أين!..

هززتُ كتفيَّ بوهن تملَّك من كل ما في دون جواب حاسم، تركتْ جلستها وارتمت بأحضاني ترتعد:

- هل ستتركني!.. تتخلى عني وقد مات الصغير!..

طوقتْ وجهي بين كفيها ودموعها تسيلُ بلا سَد:

- أنا أحبُك..

لمعة أمل مرتْ بمقلتيّ ونفضتْ خافقي خلف ضلوعي:

- تفعلين!..

أومأتْ بسرعة كأنما تلاحق الأمل كما أفعل:

صابرين الديب

حصري-هن 2022

– نعم.. لا تتركني..

كدتُ أعودُ إليها، أتعلقُ بها، أتلاشى فيها.. لولا أن برز بنظرة ساخرة في انعكاس خيالي يهزأ مني:

– أحببتِ أينا مَرسَى؟..

كنتُ أسأل بجدية وتقطيبة جبيني تترقب الجواب، لا أظنها قد تسقط في هوى قاتل ابنها. انسحبت تفارقني، ترمقني بارتباك مشتت:

– من تعني!.. أنا لا أفهمك!..

تماسكتُ قدراستطاعتي، ستتهمني بالخبال إن أخبرتُها حقيقة ما يجري.. ربما يمكنني الالتفاف حول الأمر بخدعة قديمة:

– جارِم الهادئ، الصامت أم الصاخب الذي زلزلَ عالمك ودفعَ بقلبك من فوق حافة العشق..

بدتْ تائهة لكنها لم تتمهل، عادت لعناقي تُخبرني بصدق:

- أحبُ كليهما، أحبُكَ في كل حال..

تحديتُها غاضبًا، أُبعدُها عني وقد ثارتْ دواخلي، وخانني ثباتي بهلع من اختيارها له:

- لا.. اختاري أحدنا وحسب..

ارتدتْ للوراء نائيةً عني، تجلس على الأريكة وتضم نفسها بنفسها، تراقبني بتوتر:

- أنت تخيفني جارِم!..

قبل رد منفعل مني ظهر هو يتحداني، يُجبرني أنا على الاختيار..

"لمَ لا تتنحى جانبًا وتترك لي إدارة الحدث!"..

رفضتُ بأعماقي وأَصرَّ بقسوة..

"أنتَ أجبن من أن تُحررني الآن.. صحيح!"..

ربما هو على حق.. ربما أتمسكُ بها لأنها خيطي الأخير، الذي لو انقطع فإن مصيري إلى زوال..

"أنتَ باهتٌ يا عزيزي، لم تكُن ولن تكون أبدًا أهلا للحب"..

اللعنة..

صدمتُ جبيني بالمسند قُربها، لمحتُ انزوائها في الركن بتوجس..

"هي تريدُني أنا.. تحبُني أنا، ولو حررتَنِي فستُدرِكُ أيها البائس من منا ستختار!"..

تواترتْ الضربات وصراخي المكبوت يوجع حلْقِي، أُجاهدُ للتماسك، لإبعاده، لرفضه، ويحاربني بكل قواه.. يهزمُني ويضحكُ مني، يُمزِّع واجهتي ويحتلُني بمجيئه، بهيمنتِه البغيضة، بنقمتِه عليَّ وبعشقِه لها!..

أبصرتُه من زاوية ضيقة، خانقة يتحكم باللجام، يُطوع زمام المشهد بقبضته وهو يعتدل، يجاورها، يأسر كفيها وعينيها وجسدها:

- لا تخشيّ شيئًا مَرسَاي..

ألمحُها تتعلقُ به، بالاسم الذي همسه دافئًا مطمئنًا، بملكية ختمَها بها، استعذبتْها واستكانتْ لها:

- لا تخافي مني، كل شيء سيكون على ما يرام..

الأمل يسطُع بعينيها كما الشروق عقب الفجر، تتمتم له بضعف أنثوي ناعم:

- حقًا!..

يحتوي ضعفها برجولة خشنة، تخالطها لمحة من عبثه الفطري:

- حقًا..

يُقبِّل جبينها، وجنتيها، أجفانها التي استسلمت في نصف انغلاقة:

- سنُعوض طفلنا، سنُنجب دزينة.. وسأظل قربك حتى أموت..

وجدتُها تسارع بأناملها إلى ثغره، تمنعه الحديث بذعر:

- لا.. حفظك الله لي حبيبي..

تنطوي على صدره فيطويها بكُليتها بين جدران عالمه:

- أحبُكِ..

همْسته التي ذبحتني:

- أنا أحبُكَ أكثر.. لا تتركني..

همْستَها التي أنفَذَتْ الذبح وتمَّمتْ القتل..

همْستَها التي أصابتني بعجز، بضعف، فلم أعُد قادرًا على الصمود أو العودة. يغمزني هو بظفر، يتأملُني أنمحي، أتطاير مع الريح هائمًا كدخان بلا مصدر أو منتهى. أغدو تائهًا، ضالًا كحامل الوِزْر الأول..

"الآن حان دورُ عارِم في الحياة، ودورُك في الهلاك"..

الآن خسرتُ وانتصرَ توأمي..

الآن أستسلمُ لختام قصتي الذي لم أفكر به أو يمر بمُخيلتي في يوم..

الآن أنا الوهم!..

هناك وجهان لكل حكاية..

وكل وجه هو الشرير في قصة نصفه الآخر..

نتبعثر بين كليهما ونحتار..

نُبرئ ونُجرم..

لكن الحقيقة أننا يمكن أن نكون ضحايا بقدر كوننا مذنبين..

الحقيقة أنه لا يوجد ملائكة يمشون بيننا، وجميعنا بشكل ما أبالسة!..

قربان هابيل

تمت بحمد الله

2022/2/12

صابرين الديب

حلم-هن

صابرين الديب

حلم-هن 2022